بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٤٧ ـ جمادى الأولى ١٤٣٢هجرية قمرية

فروردين ١٣٩٠هجرية شمسية / ابريل (نيسان) ٢٠١١

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦٩٨٢١ + هاتف: ٨٨٣٢١٤١١ ٩٨٢١ +

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقـــع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤ ـ ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥ ـ المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٤٧

الخطبة التاريخية للسيد الإمام الخامنئي ٤

الحرب على الصحوة بسلاح الطائفية ١٣

أدب الحوار بين المذاهب الإسلامية ١٧

منهج توحيد الأمة الإسلامية عند الشهيد محمد باقر الصدر.. ٢٧

آراء في حركة التاريخ ٥٠

قصيدة السيد مصطفى جمال الدين ٦٦

التقريب في القرن الماضي ٧٤

المثقفون والبحث عن الدور..... ٨١

موقف أئمة المسلمين من التكفير ٩٠

البيان الختامي..... ١٠٦

بيان المجمع العالمي للتقريب حول الأحداث الاخيرة في مصر وتونس... ١١٥

مقاطع من الخطبة التاريخية للإمام الخامنئي ١١٧

الخطبة التاريخية

للسيد الإمام الخامنئي

بمناسبة نهضة الشعوب العربيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام على أبناء امتنا الإسلامية في كل مكان.

على ساحة العالم الإسلامي اليوم إرهاصات حادثة عظيمة مصيرية كبرى، حادثة تستطيع أن تغير معادلات الاستكبار في هذه المنطقة لصالح الإسلام ولصالح الشعوب، حادثة تستطيع أن تعيد العزة والكرامة للشعوب العربية والإسلامية وتنفض عن وجهها غبار عشرات السنين مما أنزله الغرب وأميركا بحق هذه الشعوب العريقة الأصيلة من ظلم واستهانة وإذلال.

إن هذه الحادثة الإعجازية بدأت على يد الشعب التونسي وبلغت ذروتها بسواعد الشعب المصري الرشيد العظيم.

لقد انحبست الأنفاس في صدور العالم الغربي والعالم الإسلامي، ولكل واحد أسبابه، وهم يترقبون ما سيحدث في مصر الكبرى، مصر نوابغ القرن الأخير، مصر محمد عبده وسيد جمال، مصر سعد زغلول وأحمد شوقي، مصر عبد الناصر والشيخ حسن البنّا ، مصر عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣.

يترقبون مدى ارتفاع راية همّة المصريين، فلو أن هذه الراية

انتكست ـ لاسمح الله ـ فسيعقب ذلك عصر حالك الظلام، وإن رفرفت على القمم فإنها ستطاول عنان السماء.

الشعب التونسي استطاع أن يطرد الحاكم الخائن المنقاد لأميركا والمجاهر بعدائه للدين، ولكن من الخطأ الظن بأن هذه هي النتيجة المطلوبة.

النظام العميل لا يسقط بخروج المكشوفين من رموزه، لو حلّ محل هذه الرموز بطائنها لم يتغير شيء، بل إنه الشَرَك الذي يُنصب أمام الشعب.

في الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، حاولوا مرارًا إيقاع شعبنا في مثل هذا الفخ، لكن وعي الشعب وقائده الإلهي العظيم أدرك دسيسة الأعداء وأحبطها وواصل الطريق حتى نهايته.

وأما مصر فإنها نموذج فريد، لأن مصر في العالم العربي بلد فريد ، مصر أول بلد في العالم الإسلامي تعرف على الثقافة الأوروبية ، وأول بلد أدرك أخطار هجوم هذه الثقافة وتصدّى لها.

إن مصر أول بلد عربي أقام دولة مستقلة بعد الحرب العالمية الثانية ودافع عن مصالحه الوطنية في تأميم قناة السويس، وأول بلد وقف بكل طاقاته إلى جانب فلسطين وعُرف في العالم الإسلامي بأنه ملجأ للفلسطينيين.

السيد جمال الدين لم يكن مصريًا لكنه لم يَرَ في غير شعب مصر المسلم من يفهم همّه الكبير.

إن الشعب المصري أثبت جدارته في ساحات النضال السياسي

والديني وسجل مواقفه المشرفة على جبهة التاريخ.

لم يكن محمد عبده وتلاميذه وسعد زغلول وأتباعه أشخاصًا عاديين، كانوا من النوابغ والشجعان والواعين الذين يحق لمصر أن تفخر بهم وبأمثالهم.

إن مصر بهذا العمق الثقافي والديني والسياسي قد احتلت بحق مكان الريادة في العالم العربي.

إن أكبر جريمة ارتكبها النظام الحاكم في مصر هي أنه هبط بهذا البلد من مكانته الرفيعة إلى مرتبة آلة طيعة بيد أميركا في لعبتها السياسية على صعيد المنطقة.

إن هذا الانفجار الذي نشهده اليوم في الشعب المصري هو الجواب المناسب لهذه الخيانة الكبرى التي ارتكبها الدكتاتور العميل بحق شعبه.

إن الساحة تموج اليوم بألوان التحليل بشأن نهضة الشعب المصري ، فكلٌ يدلي بدلوه في هذا المجال غير أن كل من يعرف شعب مصر يفهم بوضوح أن مصر تدافع اليوم عن عزتها وكرامتها.

إن مصر ابتُليت بخيانات صادرت كرامتها ، إن شعبًا في ذروة العزة قد أذلّوه إرضاء لغرور أعدائه وتكبرهم.

إن موقف مصر من القضية الفلسطينية يشكل نموذجًا بارزًا لمكانة مصر ، فلسطين منذ عشرات السنين تشكل أبرز محور في مسائل المنطقة، ومسائل هذه المنطقة متداخلة مترابطة بحيث

لايستطيع أي بلد أو أي شعب أن يتصور مصيره بمعزل عن القضية الفلسطينية.

وليس ثمة أكثر من جبهتين، إما دعم لفلسطين ونضالها العادل أو الوقوف في الجبهة المقابلة.

أما شعوب المنطقة فقد بيّنت موقفها منذ البداية تجاه هذا الاصطفاف ، فحين يتجه أي نظام حاكم إلى دعم القضية الفلسطينية فإنه ينال التفاف شعبه والشعوب العربية والمسلمة. ولقد جرّبت مصر ذلك في الستينات وأوائل السبعينات، لكنه حين يقف في الصف الآخر فإن الشعب يعرض عنه.

وفي مصر ظهرت الهوة العميقة بين الدولة والشعب بعد اتفاقية العار في كامب ديفيد.

إن الشعب المصري استرخص الغالي والنفيس لمساعدة فلسطين في عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣ لكنه رأى بعد ذلك بأم عينيه أن حكامه هرولوا على طريق العمالة والطاعة لأميركا إلى درجة جعلت مصر حليفة وفية للعدو الصهيوني الغاصب!!

إن سيطرة أميركا على حكام مصر قد بددت كل جهود هذا الشعب السابقة في دعم فلسطين، وبدلت النظام المصري إلى عدو لدود لفلسطين وأكبر حامٍ للصهاينة المعتدين بينما حافظت سوريا شريكة مصر في حرب ١٩٦٧ و ١٩٧٣ على مواقفها المستقلة رغم ما واجهت من ضغوط أميركية هائلة.

وبلغ بالنظام المصري العميل أن الشعب المصري شاهد لأول مرة

في التاريخ أن حكومته تقف في حرب إسرائيل على غزة إلى صف الجبهة الإسرائيلية، ولم تمتنع عن المساعدة فحسب بل كانت نشطة في دعم جبهة العدو.

سوف لا ينسى التاريخ أبدًا أن حسني مبارك هو نفسه الذي وقف بنفسه بقوة إلى جانب إسرائيل وأميركا في حرب إسرائيل على غزة حيث قُتل النساء والرجال والأطفال خلال ٢٢ يومًا من القصف المتواصل، وفي ما فُرض قبل ذلك وبعده على غزة من حصار ظالم.

اية معاناة ومحنة عاشها الشعب المصري تلك الأيام!!! شاشات تلفزيونية نقلت لنا جانبًا من مشاعر المصريين وهم يبكون بسبب عدم فسح المجال أمامهم لمساعدة إخوتهم الفلسطينيين.

لقد بلغ السيل الزبا بهذا الشعب، ولم يعد يحتمل أكثر من هذا الوضع ، وما نشاهده في القاهرة وبقية المدن المصرية هو انفجار هذا الغضب المقدس وهذه العُقَد المتراكمة في قلوب الرجال والنساء الأحرار المصريين خلال السنوات الطويلة جراء مواقف هذا النظام الخائن العميل المعادي للإسلام.

نهضة الشعب المصري المسلم حركة إسلامية تحررية، وأنا باسم الشعب الإيراني وباسم الحكومة الثورية الإيرانية أحيي الشعب المصري والشعب التونسي سائلا الله سبحانه أن يمن عليكم بالنصر المؤزر الكامل.

إنني اشعر بالفخر والاعتزاز بنهضتكم.

أيها الإخوة والأخوات المصريين والتونسيين.

لاشك أن نهضات الشعوب ترتبط بظروفها الجغرافية والتاريخية والسياسية والثقافية الخاصة ببلدانها، ولا يمكن أن نتوقع أن يحدث في مصر أو تونس أو أي بلد آخر ما حدث في الثورة الإسلامية الكبرى في إيران قبل أكثر من ٣٠ عامًا، ولكن هناك مشتركات أيضًا، وتجارب كل شعب يمكن أن تكون نافعة للشعوب الأخرى.

وما نراه مفيدًا أن نقدّمه من تجارب في الظروف الراهنة هي:

أولا: أن نهضة الشعوب هي في الواقع حرب بين إرادتين: إرادة الشعب وإرادة أعدائه، وكل جانب كان أقوى عزمًا وأكثر تحملا للصعاب فهو منتصر حتمًا.

يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . ويخاطب رب العالمين رسوله بالقول: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ.﴾

العدو يسعى بممارسة القوة والخداع أن يوهن من إرادتكم ، فاحذروا من ضعف إرادتكم.

ثانيًا: العدو يحاول بث اليأس من تحقيق أهدافكم بينما الوعد الإلهي يؤكد انتصاركم حيث يقول عز من قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ فثقوا ثقة تامة لا يعتريها تردد بوعد الله المؤكد حيث

يقول ﴿ولينصرن الله من ينصروه ان الله لقوي عزيز﴾.

ثالثًا: العدو يسوق إليكم قواه الأمنية المجهزة لكي يبعث الرعب والفوضى بين الناس .

لا تهابوهم. أنتم أقوى من هؤلاء المأجورين ، أنتم الآن في مرحلة تشبه المرحلة التي خاطب فيها الله سبحان رسوله حيث قال: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ ﴾ أنتم تستطيعون بالاتكال على الله و الاعتماد على الشباب الغيور أن تتفوقوا على كل عبث وفوضى وإرهاب.

رابعًا: إن سلاح الشعوب المهم في مواجهة الطغيان والحكام العملاء هو الاتحاد والانسجام. العدو يسعى بأنواع أساليب المكر أن يفتّت تلاحمكم، من ذلك إثارة مواضع الافتراق ورفع الشعارات المنحرفة وطرح وجوه غير موثوقة لتكون بديلة للرئيس الخائن، حافظوا على اتحادكم حول محور الدين وإنقاذ البلد من شر عملاء العدو: ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾.

خامسًا: لا تثقوا بما يلعبه الغرب وأميركا من الدور و ما يقومون به من مناورات سياسية في نهضتكم ، هؤلاء كانوا قبل أيام يدعمون النظام الفاسد، وها هم اليوم بعد أن يأسوا من الاحتفاظ به ، راحوا يعزفون على نغمة حق الشعوب ،هؤلاء يسعون بذلك أن يبدلوا عميلاً بعميل، وأن يسلطوا الأضواء على بعض الوجوه ليفرضوا سيطرة عملائهم عليكم ، هذه إهانة بمشاعر

الشعوب، ارفضوا ذلك ولا تقبلوا بأقل من استقرار نظام كامل مستقل وشعبي ومؤمن بالإسلام.

سادسًا: الظرف يتطلب من علماء الدين والأزهر الشريف بتاريخهم النضالي المعروف أن ينهضوا بدورهم بشكل بارز، فحين يبدأ الشعب ثورته من المساجد ومن صلوات الجمعة ويرفعوا شعار الله أكبر، فإن المتوقع من علماء الدين أن يتخذوا موقفًا أبرز و هو توقّع في محله.

سابعًا: الجيش المصري، الذي يحمل، على صدره وسام المشاركة في حربين على الأقل مع العدو الصهيوني، يتعرض اليوم لاختبار تاريخي كبير، العدو يطمع أن يدفع به لقمع الجماهير، لو حدث هذا ـ لا سمح الله ـ فإنه يشكل ثغرة لهذا الجيش الفخور لا يمكن سدها، إن الذي يرتعد أمام الجيش المصري يجب أن يكون العدو الصهيوني لا الشعب المصري، مما لا شك فيه أن عناصر من الجيش المصري الذي هو من الشعب ومن أبناء الشعب سيلتحق بالجماهير إن شاء الله، عندئذ ستكرر هذه التجربة الحلوة في مصر مرة أخرى.

ثامنًا وأخيرًا: أن أميركا التي دعمت الحكام العملاء ٣٠ عامًا، خلافًا لإرادة الشعب المصري ليست الآن في موقف يؤهّلها أن تدخل في قضية مصر في وساطة أو نصيحة. انظروا بعين الشك والتشاؤم في هذا الشأن إلى كل توصية وخطوة أميركية ولا تثقوا بها.

أيها الإخوة والأخوات!

نستطيع أن نفهم بوضوح أن نهضة الشعب المصري يوجهها جمع من نخب السياسة والحكماء بالتشاور والتنسيق بينهم، ونتضرع إلى الله تعالى أن يأخذ بأيديهم، غير أن الذي ذكرناه إنما هو تجاربنا. وأنا باعتباري أخًا لكم في الدين وانطلاقًا من التزامي الديني قدمت لكم تلك التجارب.

يا أبناء الكنانة!

إن الأبواق الإعلانية للعدو سوف ترفع عقيرتها كما فعلت من قبل بالقول: إن إيران تريد أن تتدخل! تريد أن تنشر التشيع في مصر!! تريد أن تصدر ولاية الفقيه إلى مصر!! وتريد وتريد، ... هذه أكاذيب ملأت آذاننا خلال ٣٠ عامًا، الهدف منها أن يفرقوا بين الشعوب ويحولوا دون تعاضدها. ويرددها أيضًا المأجورون: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

إن هذه الأحابيل لا تثنينا إطلاقًا عن أداء ما حمّلنا الإسلام من مسؤولية. والله من وراء القصد.

أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

الحرب على الصحوة

بسلاح الطائفية

محمد علي التسخيري*

مهما اختلف المحللون في تفسير ما يجري على الساحة العربيّة فثمة اتفاق على أنه «صحوة».

لقد صحت شعوب العالم العربي من نوم طويل فُرض عليها خاصة بعد انتكاس الحكومات العربية أمام إسرائيل، وبعد معاهدات الذلّ التي انعقدت مع العدوّ الصهيوني، وبعد عمليات الإذلال العالمية التي مارسها الإعلام الغربي والأمريكي عبر الفضائيات والشبكات العنكبوتية.

يظهر أن القاعدة الثابتة التي قررها كتاب الله العزيز بذهاب «الزبد» جفاء، وببقاء «ما ينفع الناس» قد تجلّت مرة أخرى بوضوح في هذه الصحوة.

فالشباب الذي أُريد إغراقه بالعبث والجنس والمخدرات والأهداف الصغيرة التافهة، والذي أريد له أن يعيش في «الظلمات» وفي «السبات» وفي «الارتخاء» واللامبالاة، قد انتفض من كل الركام الذي صُبّ عليه ليخرج إلى «النور» وليقدّم حياته في سبيل

* -الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية .

مبادئه الكبرى وشخصيته الرسالية وهويته الإنسانية.

هذه الصحوة بكل ما فيها من عظمة وأمل وتطلّع هي في نظر أعداء الأمة الداخليين والأجانب تشكل خطرًا على مصالحهم بالمنظار الضيّق.

أقول بالمنظار الضيّق لأنها في الواقع خير وبركة على البشرية جمعاء.. فالبشرية لا يمكن أن تنعم بالخير حين يكون جمع كبير من الشعوب تحت وطأة الظلم والاستعباد والقهر والاستكانة. هذه الحروب المدمّرة التي نشهدها بين الحين والآخر، وهذه الأعمال الإجرامية الإرهابية التي تبرز هنا وهناك.. هي كلها من إفراز هذه الحالة المأساوية التي تعيشها الشعوب المقهورة.

البشرية في حركتها الصاعدة لا بدّ أن تتجه نحو إزالة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، لابدّ أن تتجه نحو تحقيق كرامة الإنسان وعزّته على ظهر الأرض.. وفي ذلك خير للجميع: للمظلومين المسحوقين، بل وحتى للطغاة الظالمين لوضع حدّ لغفلتهم وتماديهم في غيّهم واستمرارهم في تخريب العلاقات الإنسانية.

لكنّ غفلة بعض الطغاة يبدو أنها أكبر من صدمة هذه الصحوة المباركة. فبدلاً من أن يعودوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى الله ويثوبوا إلى الشعوب ويسمعوا صوتها وأنينها واستغاثتها، راحوا يخططون للانقضاض على هذه الصحوة بمختلف السبل، ومنها ـ وهو ما يهمنا في ـ ثقافة التقريب ـ الأسلوب الطائفي البغيض.

مارسوا ذلك في أكثر من مكان، وبلغت هذه الممارسات ذروتها في البحرين.

شعب البحرين يتميز بين شعوب المنطقة بدرجة عالية من الوعي الحضاري، والعمق الفكري والتعالي على الطائفية، وتوجهه الوطني والرسالي.

تاريخ الشعب البحريني مليء بصفحات من الأصالة والمعاصرة والعزّة والكرامة والإخلاص للوطن، يستوي في ذلك أهل السنّة والشيعة.

وإذا أردنا أن نقدّم نماذج من التقريب المذهبي والتفاهم الإسلامي في المنطقة فشعب البحرين يقف في الصفّ المقدم من قائمة هذه النماذج.

من هنا فمن الطبيعي أن يكون لهذا الشعب مواقف رسالية يدافع فيها عن الإنسانية والكرامة والعزّة ، ومن الطبيعي أيضًا أن تكون له المكانة الطليعية في هذه الصحوة الكبرى على صعيد العالم العربي.

ولكن الذي حدث كان محزنًا للغاية.. لقد تهيّب المتوهمون الغافلون الغارقون في دنياهم التافهة من هذه الحركة، فراحوا يمارسون بحقّها أنواع الظلم والجور.. قتلوهم ولم يرحموا حتى النساء الرضّع اللائي تضرّجن بدمائهن وهنّ يحتضنّ أطفالهنّ تحت عباءتهن البحرينية المعروفة.

ومارسوا بحقّهم قتلاً أفظع .. وهو قتل شخصيتهم الإنسانية

الرسالية بعد أن وَسَموا تحرّكهم الإنساني بالطائفية، واستفزّوا عليهم الطائفيين، وأجلب عليهم الغارقون في شهواتهم وموبقاتهم وطغيانهم جيوشًا لتقتل هؤلاء الأبرياء العزّل المسالمين المطالبين بأبسط حقوقهم.. ذلك كله باسم الطائفية أيضًا.

إنّ هذه الظاهرة تدعونا إلى التفكير بجديّة أكثر إلى مسألة التقريب الذي هو السبيل الوحيد لنزع سلاح الطائفية، هذا السلاح البغيض سيبقى يُشهر بوجه كل صحوة.. وكل يقظة في العالم الإسلامي.

من هنا فإن شعوب الصحوة وقياداتها تتحمّل أوّل ما تتحمل الاهتمام بمقاومة الأسلحة التي تُشهر بوجهها، وسلاح الطائفية أبغضُها وأسوأها. ومن الله التوفيق وهو المستعان.

فالشباب الذي أُريد إغراقه بالعبث والجنس والمخدرات والأهداف الصغيرة التافهة، والذي أريد له أن يعيش في «الظلمات» وفي «السبات» وفي «الارتخاء» واللامبالاة، قد انتفض من كل الركام الذي صُبّ عليه ليخرج إلى «النور» وليقدّم حياته في سبيل مبادئه الكبرى وشخصيته الرسالية وهويته الإنسانية.

الشيخ محمد علي التسخيري

أدب الحوار بين المذاهب الإسلامية

السيد مجتبى الحسيني*

• يجب أن يكون هدف المتحاورين هو الإصلاح والوصول إلى الحقيقة • ترك التعصّب مقدمة لازمة للحوار • التوجه نحو المشتركات من عوامل نجاح الحوار • الحوار في الأدب الإسلامي ليس منافسة بين الأفكار بل مفاهمة ومفاعلة

قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ مما لا ريب فيه أن الله تعالى قد خلق الإنسان مفطورًا على الاجتماع، بمعنى أن التعايش مع الآخرين من صميم وجوده، فهو لا يستطيع أن يدير شؤونه وقضاياه بمعزل عن الآخرين، ومن دون مساعدتهم ومعونتهم، سواءً في شؤونه المادية أو المعنوية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ، لِتَعَارَفُوَاْ إِنّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فقد بيّن تعالى أن التآلف القبائلي، والاجتماع الشعبي فضل من فضله ومنّة من مننه على الإنسان.

* - وكيل ولي أمر المسلمين في دمشق .

كما أن الله تبارك وتعالى أقدره على التكلم والنطق والبيان ليقيم كل فرد علاقاته مع أفراد نوعه، وينسج ارتباطاته بهم بأساليب المحادثة وطرق البيان، والتي هي أفضل طريق وأنجع أسلوب لإيجاد المودة، والتواصل والترابط.

وبهذه النعمة الإلهية العظمى وجُد الحوار الذي فيه التكامل، والتطور بين أفراد الإنسان، وبواسطته انتقلت الثقافات والأفكار والعلوم بين المجتمعات المختلفة، ومن الواضح بمكان أنه كلما اتصف الحوار بينهم بالأدب، وتجلببت محادثاتهم بالخُلق الحسن، كلما كانت علاقاتهم فيما بينهم حسنة، وهذا بدوره يدفع عجلة التطور بينهم في كافة مناحي الحياة، ومختلف مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وغيرها.

ميادين الحوار وسعة الأفق:

إن لغة الحوار تشغل مساحة كبيرة في الحياة البشرية، فكل مجال من مجالات الحياة يحتاج إلى الحوار بين المهتمين به، فالحياة الاقتصادية تحتاج إلى الحوار كأهم ركن في عملية التطور الاقتصادي في المجتمع، وهكذا الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها، بل يمكننا القول: أن كل ما يطوّر الحياة البشرية، ويوصلها إلى كمالها المنشود لا يمكن أن يحقق غاياته إلا بإضفاء لغة الحوار على مفرداته وقوانينه.

الحوار الديني والمذهبي:

ومن أهم ميادين الحوار في حياة الفرد والمجتمع هو الحوار في الثقافة الدينية والمذهبية، فبه يتعرف الإنسان على عقائد الآخرين وطقوسهم، ويتقارب مع نظرائه في وجهات نظرهم، كما يتعرّف من خلاله على نقاط الالتقاء والاشتراك فيعمّقها، ويتعرّف على نقاط الاختلاف فيؤطرها، أو إذا أمكن إلغاءها وتقريب وجهات النظر فيها، سعيًا في ذلك كله للوصول إلى التوحد والتآلف الديني والمذهبي.

وقد تُصنّف المذاهب بلحاظ الاعتقاد، وما يحرر في علم الكلام، فتقسم المذاهب على ضوءه إلى الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية وغيرها، وقد يصنف بلحاظ الفقه ومرجعياته فيقسم إلى الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والإمامية والزيدية والإسماعيلية والسلفية وغيرها، مع ما في ذلك من الالتقاء في مجالي الكلام والفقه.

وعلى أي حال فقد يلتقي المسلمون في حوارهم على أحد هذين المجالين، وقد يلتقون على كليهما، والاستطراد في بيان موارد الحوار خارج عن مبتغانا، لأن ما أريد بحثه هو أدب الحوار بين المذاهب الإسلامية، وهو موضوع يحتاج الاستيعاب فيه إلى مجال واسع، لأن له أهميته البالغة، ولا بد من الاعتناء الكثير بهذه الآداب والاهتمام بإحرازها حتى تكون لغة الحوار ناجحة ومثمرة ومفيدة في حياة الإنسان سعيًا للوصول إلى التقارب الفكري،

والتناغم المبدئي، والتحابب القلبي، وتجنب سلبياته التي من شأنها تعقيم الحوار، وإلغاء دوره في توحيد الأمة الإسلامية وتأليفها.

أدب الحوار المذهبي:

اسمحوا لي أن أقدم بين أيديكم بعض هذه الآداب التي من شأنها أن تطور الأفكار، وتلاقحها للوصول إلى هدفنا المنشود، قدر ما يسع المجال لذلك.

الأول: نية الإصلاح في الحوار: ينبغي للمتحاورين أن يكون الدافع لهم نحو الحوار والتباحث الوصول إلى الإصلاح، وتوطيد الحق وتثبيت دعائمه؛ بعيدًا عن المراء والظفر، وإخضاع الطرف الآخر والظهور عليه، تأسيًا بالأنبياء (عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام)، حيث أنهم قد أعلنوا هدفهم الكبير من تحاورهم مع أممهم وأقوامهم، بما حكاه الله تعالى عنهم في كتابه العزيز: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلاّ بِاللّهِ العزيز﴾ فلم يكن حوارهم لغاية الإفحام والظهور والغلبة، أضف إلى ذلك أن هناك في أحاديث النبي وأهل بيته نواهي مغلظة عن الحوار بلغة الجدل والتفاخر والظفر، فعن أبي جعفر محمد بن علي الباقرة: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوء مقعده من النار «**الثاني**: اختصاص المتحاورين في موضوع الحوار: لا بد لكي يكون الحوار نافعًا ومنتجًا أن يكون المتحاورون على درجة

كبيرة ومتميزة في العلم بما يتحاورون به، وبخواصه، وجزئياته وملازماته، بحيث يمثّل كل واحد منهم المذهب الذي يحاور لأجله، ويدافع عنه، ولا يحق لمن ليس له هذا المستوى من المعرفة أن يحاور ويناقش، وإلا يفقد الحوار حيويته، وقد ندد القرآن الكريم بأولئك الذين يخوضون الحوار على غير علم ودراية، فقال تبارك وتعالى: ﴿هَا أَنتم هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقال أيضًا: ﴿ ومِنَ النّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مّنِيرٍ﴾

الثالث: تجنب الحوار مع المتطرفين: ينبغي أن يضفي على المتحاورين الاعتدال والاتزان في طرح مواد الحوار، وترك التعصب الفئوي أو المذهبي أو العاطفي تجاه الفكرة المتحاور فيها، فإن التعصب الأعمى للفكرة لا يزيد الحوار إلا عقمًا، ولا الاختلاف إلاّ فرقة، كما أن المحاور المتعصب لا يقنع بالحق ولو رآه بأم عينه، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلّهُ اللّهُ عَلَىَ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىَ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىَ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللّهِ أَفَلاَ تَذَكّرُونَ ﴾.

الرابع: تناسب موضوع الحوار مع الوقت المحدد: مما تجدر الإشارة إليه؛ أنه من المهم جدًا أن يحدد موضوع الحوار بما يتناسب مع سعة الوقت المحدد له، كيما يصل المتحاورون إلى نتيجة واضحة، وإلا فتعاطي الحوار المفتوح على سائر الموضوعات الخلافية، أو في موضوع لا يسع الوقت المخصص له، يفوّت فرصة

الوصول إلى نتيجة واضحة الأبعاد والمعالم، كما يوجب اختلاط الأوراق، وعلوق الكثير من التساؤلات والشبهات.

الخامس: ترك الحوار في المواضيع المعقدة: من آداب الحوار المهمة عدم الخوض في النقاط المعقدة، التي لا يتمكن المتحاورين فيها من الوصول إلى نتيجة مقنعة لهم جميعًا، كما أنه يلزم الاحتراز عن الانجرار إليها أثناء التحاور في سائر الموضوعات الأخرى، لأن الحوار في هذه النقاط، والدخول في تفصيلاتها لا يزيد الأمر إلا فرقة واختلافًا، بعدما كان الهدف من الحوار هو الألفة والتوحيد.

نعم من الممكن الانفتاح على تعقيدات كثيرة بالمرور على مواضيع ومقدمات متعددة، ومن ثم إجراء الحوار السليم حولها، غير أن الأمور مرهونة بأوقاتها.

السادس: أن تكون المشتركات منطلق الحوار: ومما ينبغي الالتفات إليه أن يكون منطلق الحوار والشعلة الأولى لإنارته القضايا المشتركة بين المسلمين،والمتفق عليها في مذاهبهم، فهي الرابط الوثيق بين الأطراف، وكعبة فكرهم، ومحطّ ألفتهم ومحبتهم، وهي المعين الصافي الذي ينهل منه كل واحد منهم، ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه محمد أن ينطلق في حواره مع أهل الكتاب بالنقطة المشتركة فيما بينه وبينهم، وبالموضوع المتسالم عليه في فكره وفكرهم، وهو التوحيد، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مّن دُونِ اللّهِ ﴾.

السابع: استخدام المصطلحات الفاضلة: من أمهات الأدب في التحاور والتباحث أن يستعمل المتحاورون فيما بينهم المصطلحات الحسنة، والكلمات الفاضلة في إدارة آلية الحوار، التي تظهر الاحترام والتقدير والتكريم مهما حمي وطيس النقاش، كما ينبغي عزل التعبيرات والكلمات التي تظهر الإهانة والتذليل، ولو بأسلوب الكناية والتلميح، فهذا أمير الكلام والبيان علي بن أبي طالب لما سمع قومًا من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين قال لهم: «إني لأكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم، اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به».

الثامن: سيادة الحرية على الحوار: إن سيادة الحرية في ميادين الحوار أمر في غاية الأهمية، إذ من الضروري جدًا أن يحاور كل طرف بكامل حريته الفكرية والنفسية والجسدية، فلا يشعر بضغط أو تهديد في نفسٍ أو عرضٍ أو مالٍ، كما يلزم حجب كل ما من شأنه قمع الحريات حتى على مستوى التشجيع والتصويب لأحد الأطراف، لأجل منع الآخر عن إبداء ما لديه، كما يحصل في ميادين لعب الكرة حيث يوجد لكل فريق من يهتف باسمه

ويشجعه؛ بغية هدم معنويات الفريق الآخر، وسلب معنويته وحيويته، فإن الحوار في الأدب الإسلامي والعلمي ليس منافسة بين الأفكار، بل هو مفاهمة ومفاعلة بينها، لأن المتحاورين لا يقفون موقف التخاصم والتنازع، بل يقفون موقف التعانق والتعاون، وليس لديهم هدف إلا الوصول إلى الحق والحقيقة، ليشتركوا جميعًا في إحيائها، والعمل وفقها.

التاسع: بناء الحوار على المصادر المعتمدة: من ضروريات الحوار أن يعتمد كل طرف على المصادر المعتمدة عند الطرف الآخر، والتي يعتبرها تمثّل ـ دائمًا أو غالبًا ـ ما يقتنع به، ويؤمن بحقيقته، وترك الاعتماد على ما ألف وكُتب عليه، أو على المسموعات والإشاعات، فإن المنصف والمتحضّر من يأخذ فكر الآخرين ومعتقداتهم من مصادرهم لا ممن كتب عليهم. وهذه النقطة جديرة بالاهتمام، إذ لعل فرصة الحوار تمر وتنفد على إثبات ما قيل أو نفيه.

العاشر: قبول توجيهات المعتقدات: من آداب الحوار أن يقبل كل طرف من الآخر ما يذكره من تفسير، أو توجيه حول معتقده وفكره، إذا كان توجيهًا موضوعيًا نوعيًا، وتفسيرًا منطقيًا، ولا ينبغي رفضه منه، ولا أن يحمّل كل واحد منهم الطرف الآخر ما فهمه عنه، وما استنتجه من أفكاره ونظرياته، لأننا إنما نريد من الحوار تلك التوجيهات المعقولة، والمقبولة لعامة المسلمين ليزداد رصيد المتفقات المنتجة للتقارب والتوحيد.

الحادي عشر: ترك المؤاخذة على لوازم العقيدة: قد تكون لبعض المعتقدات، أو الأفكار التي يؤمن بها طرف من أطراف الحوار ملازمات عقلية مرفوضة عنده إلا أنه غير ملتفت إليها، و قد يكون ملتفت إليها إلا أنه لا يؤمن بها، فمن اللازم على الطرف الآخر عدم مؤاخذته عليها، وترك التلاوم بها، حتى لا تتحول إلى مثار جدل واسع بينهم، فتلتغي فائدة الحوار وتبهت حيويته.

الثاني عشر: ترك مؤاخذة المذهب على الأفكار الشخصية: قد ينظّر البعض نظريات خاصة شخصية دفاعًا عن مذهبه أو ردًا على بعض ما أشكل عليه، وقد تحمل هذه النظريات أخطاءًا معينة، فينبغي عدم تحميلها لمذهبه، وترك ملامة هذا المذهب بها، ما دامت لا تعدو أن تكون اجتهادات اقتراحية من ذلك البعض، بل ينبغي التحاور على ضوء الإطار العام المقبول عند جميع أبناء ذلك المذهب، وبما يعتبرونه دينًا لهم.

الثالث عشر: عدم طلب التنازل عن المسلمّات عند الطرف الآخر: ومن أدب الحوار الهامة أن لا يطلب أحد الأطراف من الآخرين التنازل عما هو مسلّم عندهم من المعتقدات، فإن من شأن ذلك خنق الحوار، ووصوله إلى سلب الحرية في الاعتقاد، بل على كل طرف أن يلقي ما لديه من الحجج والبراهين، وعلى ذلك الطرف مسؤولية درك ذلك، ليقرر بشأن ذلك المسلّم عنده، سواء بقي على معتقده به أو أقلع عنه.

الرابع عشر: ابتناء الحوار على الأصول الموضوعية: مما تجدر الإشارة إليه أيضًا أنه لا ينبغي جعل الأمور الغير مقومة للمذهب مقومًا له في لغة الحوار، بل ينبغي ابتناء الحوار على الأصول الموضوعية عند كل طرف، وما يعتقدون أنه مقوّم لمذهبهم، وترك التحاور والجدال على مفردة لا يعتبرها الطرف الآخر مقوّمًا، وأصلاً من أصول معتقداته، ذلك لكي نشغل الحوار في القضايا الهامة؛ بعيدًا على الجزئيات التي لا طائل من الحوار فيها، ولا ثمرة من الاختلاف فيها.

هذه جملة من الآداب التي ينبغي أن يعيش الحوار في ظلها، ويلزم على المتحاورين أخذها بعين الاعتبار، لكي يكون الحوار ناجعًا ونافعًا، ويعود بالخير والصلاح، والمحبة والألفة على المسلمين جميعًا.

أخاطبك (أيها الشعب العراقي) بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك، لأن المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر، ولا قومية دون أخرى... إن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي... فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، وأنا معكما بقدر ما أنتم مع الإسلام...

الإمام الشهيد محمد باقر الصدر

منهج توحيد الأمة الإسلامية
عند الشهيد محمد باقر الصدر

عبد الحليم الرهيمي*

• النداءات الثلاثة التي وجهها الشهيد الصدر إلى الشعب العراقي تشكل انعطافاً كبيرًا على الصعيد السياسي • الصدر: أنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي • الخطاب التقريبي للشهيد الصدر مشتق من منهج توحيدي عام وشامل • فضل الله: فكر الشهيد الصدر وقلمه يمثلان النقلة المتقدمة لحركة الاتجاه الإسلامي الرائد • آرى أن الشهيد الصدر تعمّد عدم الخوض في تفاصيل الخلاف المذهبي.

حظيت مسألة الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، وكذلك بين التكوينات القومية والإثنية التي يتألف منها المجتمع الإسلامي باهتمامات علماء الدين الإصلاحيين والمفكرين والكتاب المسلمين، عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، وخاصة في القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي الذي

* - باحث عراقي .

شهد، لاسيما في عقوده الأخيرة، جهودًا وأعمالاً كبيرة على هذا الصعيد تمثلت في قيام هيئات ومؤسسات، أو عقد مؤتمرات، سعت وتسعى، لتحقيق هذا الهدف، وذلك إضافة للدعوات والمساعي التقريبية والتوحيدية التي دعا إليها، أو قام بها، علماء مصلحون ومفكرون وكتاب مسلمون، في أواخر القرن الماضي، والنصف الأول من القرن الأخير مثل، السيد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، وعدد من كبار علماء الأزهر الشريف، كالشيخ عبد المجيد سليم، الشيخ محمد أبو زهره، والشيخ محمد شلتوت، الذي أصدر فتواه المعروفة "بجواز التعبّد بمذهب الإمامية الأثني عشرية كسائر المذاهب السنية" وكذلك مثل السيد محسن الأمين والسيد عبد الحسين شرف الدين في لبنان، والسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ محمد رضا المظفر والشيخ عبد الكريم الزنجاني في العراق... وغيرهم.

لكن، وعلى الرغم من هذه الجهود والمساعي والمحاولات التي بذلت من أجل التقريب، فان النتائج لم تكن كبيرة، بل إن الحلول التي توصّل إليها العلماء والمفكرون الإصلاحيون الذين أبدوا اهتمامًا بهذه المسألة، كانت مختلفة في حد ذاتها أشد الاختلاف، كما يرى الشيخ محمد مهدي الآصفي.

ففي دراسة له حول الشيخ محمد رضا المظفر وموقفه من المسألة «الطائفية» أو الاختلافات المذهبية وسبل معالجتها، يشير

إلى أن هنالك سبيلين: الأول: من يؤمن بأن علاج المشكلة ينحصر في المقاومة السلبية للمذاهب الإسلامية المنحرفة عن الخط الإسلامي، ولا تفيد أي تقيّة أو أي مداراة في علاج المشكلة، وهذا لا ينهض بشيء غير توسعة شقة الانشطار وتجديد حدة الخلاف بين صفوف المسلمين. أما الثاني: فهو من يؤمن، قبال الطائفة الأولى، أن علاج المشكلة يتم عن طريق الإغفال والإهمال وتناسي المسلمين ما بينهم من الخلاف ويتنازل كل واحد منهم للآخرين عما يعتقده، وهذا الشيء، قد أثبتت التجارب بأنه لا يمكن تحقيقه. وقد توصل الشيخ الآصفي في دراسته هذه إلى أن طريقة الشيخ المظفر التي كان يؤمن بها ويعمل لها كانت شيئًا بين هذا وذاك، لا يتسم بالسلبية التي لا تعرف الرفق والأناة، ولا يتسم بالإهمال الذي يفقد أي كيان فكري، لذلك كان يؤمن بجدوى البحث والنقاش على أن يجري في جو طليق لا يعكر صفوه التعصب والتقليد ولا يتسم بطابع السلب والعداء.

وثمة رؤية أخرى لمعالجة هذه المسألة، وهي الرؤية التي تدعو إلى «إسلام بلا مذاهب» كما يعتقد مثلاً، العلامة السيد علي الأمين. ففي الندوة التي عقدت في دمشق في ربيع سنة ١٩٩٩ حول «التقريب بين المذاهب» تقدم السيد الأمين بدراسة تعالج هذه المسألة بعنوان «أبعاد الحوار الفقهي عن مسائل التاريخ» جاء فيها قوله: «إن الولادة المتأخرة للمذاهب ـ التي اكتملت بعد وفاة الإمام أحمد بن حنبل في سنة٢٤١ هجرية ـ هي موضع وفاق بما في ذلك

مذهب الإمام جعفر الصادق، بالمعنى المذهبي، ولا شك أن الذي كان موجودًا قبل هذه المذاهب هو الإسلام بدون مذاهب، وهذا ما نريد أن نرجع إليه ونعتمد عليه... ومن هنا نقول: إن المذاهب ليست قدرًا لا يمكن تجاوزه، إنها مناهج في الاستدلال وطرق الاستنباط للوصول إلى حكم الله تعالى».

وإزاء هذه الأهمية التاريخية والراهنة، التي انطوت وتنطوي عليها مسألة التقريب بين المذاهب والوحدة الإسلامية وتعدد الرؤى حولها، وحول سبل ومناهج معالجتها يطرح السؤال: ماهي إذن رؤية الإمام الشهيد محمد باقر الصدر لهذه المسألة وموقفه منها؟ وماهو المنهج الذي استند إليه لمعالجتها؟ إن ما يُضفي على هذا السؤال أهمية ومشروعية أكبر، هو الموقع والمكانة الرفيعان اللذان كان يتبوءهما الشهيد الصدر، كفقيه ومفكر إسلامي كبير وغزير الإنتاج، ولأنه معني مباشرة بإبداء رؤيته حول هذه المسألة وسبل حلها.

للإجابة عن هذا السؤال، لابد من الانطلاق من مواقف الصدر الأكثر اقترابًا وتعاملاً مع هذه المسألة والتي عبّرت عنها، إلى حد كبير، النداءات الثلاثة التي وجهها إلى الشعب العراقي خلال شهري رجب وشعبان عام١٣٩٩ هجرية، وذلك عندما كان النظام الحاكم في بغداد قد فرض عليه الحصار الأمني والإقامة الجبرية في بيته بمدينة النجف الأشرف.

لقد شكلت تلك النداءات الثلاثة، آنذاك، نقطة تحوّل

وانعطاف كبير، على الصعيد السياسي، في مسار الصراع والمواجهة بين النظام الحاكم في بغداد من جهة، وبين الشعب العراقي بوجه عام والحركة الإسلامية بوجه خاص، من جهة ثانية، وكانت تلك النداءات بمثابة خطاب سياسي مباشر، عبّر فيه الشهيد الصدر عن موقفه الحازم والصريح تجاه النظام، من خلال طرحه لجملة من المطالب السياسية والدينية والاجتماعية على النظام، إضافة لطرحه شعارات تعبوية لاستنهاض الشعب ودعوته لإسقاط هذا النظام. لقد كان ذلك أحد وجهي المعنى الذي انطوت عليه تلك النداءات، أما الوجه الآخر، المهم والملفت، فهو اتسام مخاطبة الشهيد الصدر العراقيين بلهجة، أو لغة، او يستخدمها ولم يتحدث بها من قبل، حيث انطوت على دلالات مهمة وذات مغزى فكري وتاريخي كبير.

فعندما لجأ النظام لاستخدام وممارسة سلاح الطائفية والعنصرية بشكل سافر، في محاولة منه لتفريق صفوف العراقيين لإضعاف مقاومتهم، له، أدرك الشهيد الصدر خطورة ذلك فعمد، بعد التقاطه لمغزى وأبعاد ما يسعى النظام لتحقيقه من وراء ذلك، إلى مخاطبة العراقيين بـ «الشعب العراقي العزيز» تارة، ووفقًا لانتماءاته المذهبية والقومية والمناطقية تارة أخرى، هادفًا من وراء ذلك إلى نزع هذا السلاح من يد النظام وإفشال فعله وتأثيره. ففي النداء الثالث قال الصدر مخاطبًا الشعب العراقي: «أخاطبك بكل فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنتك وشيعتك، لأن

المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر، ولا قومية دون أخرى... إن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي... فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، وأنا معكما بقدر ما أنتم مع الإسلام...». وبهدف توضيح السبب الذي دعاه لمثل هذا النسق من لغة المخاطبة قال: «إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة، أن المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك، وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين، ويا أبناء أبي بكر وعمر، أن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني، فالحكم السني الذي مثّله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حَملَ عليٌّ السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديًا في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول أبو بكر... إن الحكم السني لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنيين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر الذي تحداه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كل تصرفاتهم وهم ينتهكون وحرمتهم للإسلام، وحرمة علي وعمر معًا...».

إن أي قراءة أو تحليل لمفردات النداء الثالث، الذي عمدنا لإيراد فقرات مطوّلة منه لأهميتها، إضافة إلى لغة المخاطبة التي عمد الشهيد الصدر إلى استخدامها، تشير بوضوح إلى أنها تمثل دعوة عملية للتقريب المذهبي، سياسيًا، أكثر مما هي دعوة تنظيرية، أو وعظيّة ـ أخلاقية لنبذ الخلاف والفرقة والتعصب، أي

أنها بمثابة خطاب سياسي تقريبي يستجيب لضرورات سياسية كانت قائمة آنذاك لكنها تعكس، في الوقت نفسه، نهجًا فكريًا توحيديًا في تعامله مع القضايا والهموم الإسلامية، ومنها مسألة التقريب... فما هي، إذن، مصادر ومقومات هذا المنهج التوحيدي للشهيد الصدر، وما هو موقعه بين المناهج، أو السُبل، التي تعالج هذه المسألة؟

الواقع، أن هذا النسق من لغة الخطاب التقريبي السياسي العملي، الذي عبّر عنه الشهيد الصدر في لحظة مواجهته لظرف سياسي محدد السمات والمظاهر والأهداف، إنما هو مشتق من، ويعبّر عن منهج توحيدي إسلامي عام وشامل، وهو منهج له مصدران رئيسيان: الأول: النظرة الشمولية إلي فَهمِ الشهيد الصدر وتَمثّل، من خلالها، الإسلام. أما المصدر الثاني: فهو قراءة الصدر لتاريخ الإسلام قراءة توحيدية ومتمثلة لمغزى ودلالات أحداثه وتطوراته، ومنها مسألة الوحدة والتقريب بين المذاهب.

وفيما يتعلق بالمصدر الأول، أي النظرة الشمولية العامة التي نظر بها الشهيد الصدر للإسلام، فقد نشأت وتبلورت لديه بشكل مبكر، وأصبحت إحدى الخصائص المميزة لفكره، والتي انعكست، أو جرى التعبير عنها، في كتاباته ودراساته المبكرة، حيث مكنت هذه النظرة الشمولية الشهيد الصدر من الإطلال عبرها على كل القضايا التي عالجها في كتاباته. وبهدف التعرف على البدايات الأولى لتشكل هذه النظرة وتطورها

لابد من العودة، كنقطة انطلاق، إلى المقالات الافتتاحية الخمس لمجلة «أضواء» التي كان يكتبها الشهيد الصدر بعنوان «رسالتنا» في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، وذلك فضلاً عن الموضوعات الأخرى للمجلة التي كان يشرف عليها الصدر نفسه، والذي كان فكره وقلمه يُمثلان، آنذاك، وفقًا لتوصيف العلامة السيد محمد حسين فضل الله «النقلة المتقدمة لحركة الاتجاه الإسلامي الرائد». ففي قراءته لهذه المقالات وتحليله لمدلولاتها وما تمثله في فكر الشهيد الصدر، يقول السيد فضل الله في تقديمه لها: «إن على الدارسين الذين يريدون أن يدرسوا بدايات فكر السيد الصدر أن يدققوا في هذه الحلقات الخمس من «رسالتنا» ليعرفوا اتجاه فكره في تلك المرحلة ودوره في قيادة الحركة الإسلامية في العراق من خلال الخطوط العريضة للتحرك الإسلامي».

وفي إحدى هذه المقالات بعنوان «رسالتنا يجب أن تكون قاعدة للوحدة» كتب الشهيد الصدر: «أن الوحدة التي دعا إليها الإسلام هي الوحدة المسايرة لواقع الكائن الإنساني، إنها الوحدة التي تترك للفرد مجاله وشخصيته وتهيئ له جميع مسائل النمو والإبداع والتفتح وتوازن بين طاقته... وهي الوحدة الراسخة مهما تنوعت مصالح الأفراد والأحزاب والطبقات، لأنها وحدة تقوم على أصل ثابت عند الجميع ومشترك بين الجميع». وإذ تشير هذه الرؤية للوحدة إلى نظرة ذات أفق واسع وبعيد المدى، حيث ترى فيها

الإطار الموحد لجملة من مصالح الأفراد والجماعات والطبقات، فإن هذه الرؤية ذاتها هي التي بلورت وصاغت، تاليًا، منهجه التوحيدي، الذي درس وتناول، في ضوئه، القضايا الفكرية والسياسية والفلسفية والاقتصادية، والتي كان كتابًا «اقتصادنا» و«فلسفتنا» بخاصة، المثال الأبرز على كتابتهما بمنهج توحيدي إسلامي عام، وليس بمنهج مذهبي، أو فئوي ضيق يفتقد إلى النظرة الشمولية الأوسع.

إن المنهج التوحيدي الإسلامي لدى الشهيد الصدر قد حظي، وما يزال، باهتمام ودراسة الكثير من الكتاب والباحثين الإسلاميين، نظرًا لما يتميز به من خصائص وسمات تميزه عن مناهج علماء دين ومفكرين إصلاحيين آخرين . . وكمثال، يمكن الإشارة إلى إحدى الدراسات بعنوان «مدخل الإمام الصدر لفهم الإسلام» حيث حدد الكاتب محمد عبد الجبار أربعة مداخل لذلك، تأتي في مقدمتها النظرة الشمولية للإسلام، حيث يرى الكاتب أن الشهيد الصدر قد تعامل مع الإسلام باعتباره كيانًا واحدًا متكاملاً تلتقي فيه العقيدة مع الأحكام والقيم الأخلاقية مع المنهج، «وان هذه النظرة الشمولية تجلّت في المنهج الذي اتبعه الصدر في كتاب *اقتصادنا* وفي *التفسير الموضوعي للقرآن*، وفي فهم العلاقات الرابطة بين قطاعات الإسلام المختلفة في العقيدة والعبادة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق».

أما الباحث عبد الجبار الرفاعي فقد توصل في دراسة له حول

المنهج التوحيدي للشهيد الصدر إلى «أن إعماله تعبير عن محاولات منهجية لتأصيل نظرية إسلامية في كل حقل من حقول المعرفة الإسلامية... وأن الهم الأساسي الذي يضطلع به مشروع الشهيد الصدر هو الحرص على اكتشاف (أو صياغة) نظريات الإسلام في التاريخ والاقتصاد والسياسة والمجتمع... الخ».

وفي مقدمة تحقيقه لكتاب *موجز أصول الدين* للشهيد الصدر يخلص الباحث الرفاعي من دراسته وتحليله لفكره ومؤلفاته إلى «أن الرؤية التوحيدية في فكر الشهيد الصدر تستند إلى مجموعة أصول مركزية يؤدي بعضها للبعض الآخر، وتتواشج مع أبعاد أخرى تنبثق عنها أو تلتقي بها في منظومة واحدة بحيث يكون التوحيد هو المنبع الوحيد الذي تتفرع عنه تلك الأصول وتتجسد في تلك الأبعاد».

من ذلك نخلص إلى القول: إن النظرية الشمولية للإسلام لدى الشهيد الصدر التي تشكلت ونمت منذ نهاية الخمسينيات قد شكلت الأساس لصياغة المنهج التوحيدي الذي عكسته مؤلفاته الأولى، والذي تطور وترسخ بعد ذلك، ليصبح الأداة الأساسية للشهيد الصدر في رؤية الأحداث والظواهر والقضايا الإسلامية، ومنها الوحدة الإسلامية والتقريب.

أما المصدر الرئيسي الثاني الذي نهل منه الشهيد الصدر نظرته الشمولية للإسلام وصاغ في ضوئها منهجه التوحيدي فهو قراءته للتاريخ الإسلامي وفهمه له وتمثله لأحداثه ومساره، كتاريخ

للاجتماع الإسلامي المتنوع والمتعدد، والمختلف والمتصارع حتى لو كان في الإطار الإسلامي الواحد.

أفرد الشهيد الصدر لدراساته وبحوثه كتبًا ومؤلفات مستقلة، الاّ أنه لم يفرد كتابًا أو بحثًا مستقلاً يتناول تاريخ الاجتماع الإسلامي، وخاصة تأريخ الخلافات والصراعات المذهبية والسياسية التي أخذت تظهر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبدء عهد الخلافة الراشدة والتي أخذ نطاقها يتسع في المراحل التاريخية اللاحقة... وحتى الآن، وذلك كيما نتمكن من معرفة رؤية الصدر ومنهجه في معالجتها، عبر نصه التاريخي، مباشرة.

ومع ذلك، فإن استحضارًا مكثفًا لأهم وقائع ذلك التاريخ ومظاهر الخلافات المذهبية والسياسية والتعرف على رؤية ومنهج أئمة أهل البيت، ثم منهج الفقهاء والمفكرين المصلحين لمعالجتها، سيمكننا ـ عبر المقارنة ـ من التعرّف على مدى مطابقة، أو عدم مطابقة، رؤية ومنهج الشهيد الصدر لتلك الرؤية وذلك المنهج. وإذا ما حددنا نقطة الانطلاق ببدء عهد الخلافة الراشدة، إثر وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يمكن القول: إن الحدث الخلافي الأبرز والأول في التاريخ الإسلامي هو انعقاد اجتماع «السقيفة» لأخذ البيعة لأبي بكر خليفة المسلمين...

مثل هذا الحدث الخلافي بداية الانقسام والانشطار في صفوف المسلمين، حيث مثل التيار أو الاتجاه الأول أنصار ومؤيدو اجتماع

سقيفة بني ساعدة ومبايعة أبي بكر خليفة، والتيار أو الاتجاه الثاني من أنصار ومؤيدي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي لم يحضر اجتماع السقيفة أصلاً، ويرى هذا التيار أو الاتجاه أحقية الإمام علي بالخلافة لامتلاكه صفات تؤهله أكثر من غيره لهذا المنصب، ومن ثم الاستناد بشكل أساسي إلى واقعة «غدير خم» التي بويع فيها الإمام علي عليه السلام وليًا وخليفةً وأميرًا للمؤمنين بحضور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشهادته.

لقد أدت تداعيات «السقيفة» وأخذ البيعة بالخلافة لأبي بكر، إلى استمرار دوافع وأسباب الانقسام باستخلافه من بعده لعمر بن الخطاب، ثم من الشورى عند البيعة لعثمان بن عفان من بعده. أما مبايعة علي بعد مقتل عثمان، فقد حولت «فتنة» مقتله الانقسام إلى صراع دموي باندلاع معركة الجمل، ثم تأجج هذا الصراع وترسخ الخلاف والانقسام باندلاع معركة صفين، بعد تمرد معاوية في دمشق على خلافة علي التي اتخذت من الكوفة مركزًا لها، ومحاربته.

لقد تواصل وتعمق الخلاف والانقسام داخل الاجتماع الإسلامي سياسيًا وفكريًا وأمنيًا، حتى برزت المذاهب الإسلامية التي استكملت نشوءها وتبلورها منتصف القرن الثالث الهجري لتضفي على هذا الخلاف (السياسي) أبعادًا مذهبية وفقهية. وخلال القرون التالية من التأريخ الإسلامي تواصلت تلك الخلافات

والصراعات السياسية والمذهبية، التي كانت تشتد ثم تنحسر، وكان أبرز مظاهرها اضطهاد الحكام والولاة لأئمة أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم بخاصة وللفرق الإسلامية الشيعية بعامة، حيث كانت تستعر خلالها الخلافات والسجالات وتُكتب مئات الكتب والرسائل التي تتحدث عن الخلافة والإمامة والغدير والوحدة، وقد صاحب ذلك أعمال عنف ومعارك بين الجماعات أضعفت الاجتماع الإسلامي... فماذا ترتب على ذلك من نتائج فقهية وسياسية وكيف تمت معالجة ذلك؟

إن إحدى الدراسات المهمة، التي تناولت بالبحث والتدقيق خلافات وانقسامات الاجتماع الإسلامي بعد وفاة الرسول بخطوطها الرئيسية العامة وبينت موقف الإمام علي وأئمة أهل البيت من هذه الخلافات وسبل معالجتها، هي الدراسة التي قدمها العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين في مهرجان الإمام علي عليه السلام الذي عقد في لندن يوم١٩ ذي الحجة١٤١٠ هجرية الموافق١٢ تموز ١٩٩٠ ميلادية، بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على يوم الغدير.

يلخص الشيخ شمس الدين، بادئ ذي بدء، وبإيجاز شديد، مشكلة الانقسام وما كان عليه الاجتماع الإسلامي في عهد الخلافة الراشدة بالقول: «إن ثمة تنافيًا بالتناقض في بعض التفاصيل، وبالتضاد في بعض التفاصيل، بين الشيعة والسنة في مسألة الخلافة والإمامة والغدير... وقد ترتبت على هذا التنافي

خلافات أخرى في العقائد، وفي الفقه، وفي النظرية السياسية، وانعكس هذا الخلاف في الواقع التاريخي، صراعًا فكريًا وسياسيًا واجتماعيًا ترك آثاره الدامية في التاريخ على جسم الأمة الإسلامية». وفي توضيحه لأحد الأسباب الرئيسية لاستمرار الانقسام والاختلاف يضيف الشيخ شمس الدين: «ونظَّرَ علم الكلام الشيعي، وفي الفقه التقليدي للانقسام عن السنة، وفي علم الكلام الأشعري، وفي فقه المذاهب السنّية نظّر للانقسام عن الشيعة... لقد نظَّر للانقسام الأعظم الذي حدث في الأمة منذ صفين، ولا يزال قائمًا حتى الآن بين الشيعة والسنة» وذلك رغم «وجود مقدس يلتقي عليه المسلمون جميعًا ولم يتأثر موقفهم منه بنزاعهم وخلافهم في الإمامة وهو وحدة الأمة الإسلامية التي تعني التكوين البشري العقيدي على أساس الإسلام». ويضيف شمس الدين «إن العقيدة بوحدة الأمة الإسلامية انعكست على مستوى الشريعة في الفقه، فالمسلم عند الشيعة والسنة، بصرف النظر عن انتمائه الكلامي، له أحكام توحده مع سائر المسلمين في جميع قضايا الحياة العامة وبعض الخاصة».

وفي متابعته وتحليله للخلافات بين الشيعة والسنة يشير الشيخ شمس الدين إلى مسألة في غاية الأهمية لرؤية التاريخ لدى بعض الشيعة وبعض السنة فيقول: «إن اللازم الأعظم لعقيدة الشيعة الإمامية في الإمامة كما عرضها علم الكلام القائم الآن، هو بطلان التاريخ الذي وقع خارج شرعية الإمامة منذ أبي بكر وإلى

آخر سلطان أو خليفة خارج هذه الشرعية، وإذا كان من شرعية لبعض فصوله، فإنما حصلت بإجازة وإمضاء الإمام المعصوم علي بن أبي طالب عليه السلام على رأي كثيرين من علماء الشيعة يذهبون إليه». ويضيف الشيخ شمس الدين موضحًا. «أما اللازم الأعظم في المقابل لعقيدة أهل السنة في الخلافة والإمامة، كما عرضها علم الكلام الأشعري التقليدي وعلم الفقه التقليدي في المذاهب السنّية فهو صحة وحقانية وإسلامية التأريخ الذي وقع منذ وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصحبه الذين اتبعوه بإحسان وإلى آخر خليفة عباسي شكلي في مصر، أو إلى آخر سلطان أو خليفة عثماني على رأي شائع أيضًا بين الإسلاميين...» وهنا يستنتج بأن «هذا اللازم في مقابل اللازم الشيعي يقتضي خروج الشيعة عن الشرعية السياسية للأمة وخروجهم عن وحدة الأمة». وفي ضوء ذلك يصدر الشيخ شمس الدين حكمه بالقول: «لقد انتهك المقدس والضروري، وهو وحدة الأمة الإسلامية، من قبل أهل السنة والشيعة معًا، ويؤدي توالد النتائج من الأصل الكلامي عند كل واحد من الفريقين إلى هذا المحذور...» ثم يخلص إلى القول: «لقد فشل أسلوب علم الكلام حتى الآن في حل هذا التعارض الخطر، وأكتفي بأن أقول فشل، حتى لا أقول إنه أحد أسباب هزائمنا بسبب بعض مقولاته ومنها مقولة التكفير». وهنا يطرح السؤال: ما هو الحل، إذن، لهذا الأشكال الخطير والمعقد الذي هدد ويهدد الاجتماع الإسلامي، ليصون وحدته مع

الانقسام والاحتراب والتفتت؟ عن ذلك يجيب الشيخ شمس الدين في بحثه بالقول: «إن الحل موجود، ولكننا ـ شيعة وسنة ـ غفلنا عنه وتجاوزناه... نحن أصحاب وتلاميذ الغدير، نحن طلاب مدرسة الغدير، ولهذه المدرسة أساتذة هم علي بن أبي طالب وأبناؤه الأحد عشر المعصومون عليهم السلام الذين واجهوا هذه المشكلة باعتبارهم الأمناء على الإسلام والأمة، لا باعتبارهم سياسيين» ويضيف: «لقد واجه الإمام علي هذه المشكلة على مساحة حياته كلها، واجهها في السقيفة وواجهها عند استخلاف أبي بكر لعمر وواجهها في الشورى عند البيعة لعثمان، وواجهها حين انثال عليه الناس ليبايعوه، وحاول أن يبتعد ولكنه استجاب لإرادة الأمة...» وهكذا «عالج الأئمة هذه الإشكالية بين المقدّسين، هذا التعارض بين الإمامة وبين وحدة الأمة، بين الحق والواجب..» وفي ضوء ذلك يخلص الشيخ شمس الدين إلى القول: بأن «المشكلة في قضيتي الوحدة والإمامة المعصومة لم تولد من التعارض بينهم، وإنما ولدت المشكلة من التعارض بين الإمامة والدولة، وبين الوحدة والدولة، والتعارض لم يكن عند أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام بين المقدسين، وإنما كان بين المقدس والنسبي، وقد واجه الإمام علي هذا التعارض بين وحدة الأمة والمتغيّر السياسي ـ الدولة المتغير السياسي حينما جاءه أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب، يعرضان عليه البيعة بالخلافة، ورفض العرض، وتخلّى عن الفرصة، إيثارًا للمقدس: (وحدة الأمة) على

السياسي المتغيّر (الحكم ـ الدولة)، وواجه هذا التعارض بين وحدة الأمة وبين السياسي حين استخلف عمر، وواجه هذا التعارض بين وحدة الأمة وبين السياسي في الشورى... أي أن الإمام عليًّا عليه السلام كان دائمًا يخدم المقدس ويلتزم وحدة الأمة ويضحي بالسياسي لمصلحة وحدة الأمة ولمصلحة الإسلام». وهكذا، فإن أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام بيّنوا كل شيء، بيّنوا المقدس، بينوا أن الإمامة لابد من أن تكون للمعصوم، ولابد من أن تكون بالنص، وان الإمامة استمرار للنبوة، وان الإمامة ضمانة سلامة التشريع من التحريف وسوء التأويل، لكنهم حينما واجهوا مسألة الحكم الذي يهدد وحدة الأمة قال لسان حالهم جميعًا: «لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين في (المقدس ووحدة الأمة) ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة» في السياسي والنسبي الدولة. وبناء على هذه الرؤية يؤكد الشيخ شمس الدين بأن هذا الموقف استمر (وهذا الكلام أقوله لمراجع وعلماء الشيعة) منذ السقيفة إلى حين الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر عليه السلام. ثم ماذا بعد الغيبة الكبرى؟ يسأل شمس الدين ويجيب: «الأئمة صححوا التاريخ منذ بدأ، لا يوجد تاريخ باطل، و "ولاة الجور" هم ولاة الجور، ليست لهم شرعية، ولكن الأمة بقيت واحدة، وما أنجز في التاريخ من قبل الأمة لا تتأثر شرعيته بوجود ولاة جور، لأن (الإمامة المعصومة) موجودة ظاهرة، ساهرة، حارسة». ثم يؤكد الشيخ شمس الدين، «بأن علم الكلام يقتضي

ببطلان التاريخ وانقسام الأمة وخروج فريق منها عن الإسلام... وسيرة الأئمة المعصومين صححت التاريخ وحفظت الإسلام وحفظت المقدس: وحدة الأمة».

إن هذه القراءة المتفحصة لإشكالية انقسام الاجتماع الإسلامي والخلاف بين الشيعة والسنة الذي شغل التاريخ الإسلامي منذ العهد الراشدي، ثم قراءة رؤية أهل البيت لهذه الإشكالية وكيفية معالجتها، أدت بالشيخ شمس الدين إلى التوجه بـ «الالتماس من سادتي وإخواني العلماء ومن المشتغلين بعلم الحديث ومن المفكرين أن يعيدوا النظر بعمق في النصوص التاريخية والتشريعية الواردة في المسألة السياسية ليروا، كما رأيت، وأرجو أن أكون قد أصبت...». وفي ضوء ذلك يقول: «اقترح أن نعود في حل هذه المشكلة إلى طريقة العلاج التي اتبعها علي وأهل بيته المعصومون عليهم السلام في التعامل مع وحدة الأمة، بالنسبة إلى الإمامة على معتقد الشيعة، وفي التعامل مع قضية الخلافة بالنسبة إلى معتقد السنة، على ضوء وحدة الأمة، التي هي القضية الكبرى، في مقابل قضية الدولة/ الحكم السياسي...».

لقد عمدتُ إلى إيراد فقرات طويلة من هذه الدراسة –القراءة التاريخية للشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي هو، كالشهيد محمد باقر الصدر، فقيه ومفكر إسلامي كبير ويمتلك مثله، المنهج التوحيدي الإسلامي ذاته في رؤيته وتحليله للقضايا والأحداث والظواهر. ولذلك يمكن القول: بأن الشهيد الصدر

كان قرأ وفهم وتمثل، إشكالية الانقسام والخلاف المذهبي في تأريخ الاجتماع الإسلامي، دون أن تسمح له الظروف أو الوقت لكتابة نصّ لها، بقراءة ورؤية مشابهة، وربما متطابقة إلى حد كثير، مع قراءة ورؤية الشيخ شمس الدين، بخطوطها الرئيسية، وربما في بعض تفاصيلها.

لا يستند هذا الاستنساخ إلى افتراض غير واقعي، إنما هو استنتاج يجد أسسه وأصوله في المنهج التوحيدي للشهيد الصدر وفي نظرته الشمولية للإسلام، واللذين أشرنا إليهما في سياق هذا البحث، وجرى التعبير عنهما بمصدرين رئيسيين وهما: كتاباته وبحوثه ونظرته الشمولية للإسلام، ثم نداءاته الثلاثة، وخاصة النداء الثالث، وذلك فضلاً عن التعبير عن هذه الرؤية والمنهج في بعض مؤلفاته مثل كتاب *المحنة* وكتاب *بحث حول الولاية*. وبناء على ذلك الاستنتاج الذي يفترض قراءة الشهيد الصدر وفهمه وتمثله لإشكالية الانقسام والخلاف المذهبي في تاريخ الاجتماع الإسلامي، دون كتابة نص بذلك، يمكن القول أيضًا: "بأن الصدر فعل الشيء ذاته، دون أن يتسنى له كتابة نص، وذلك بقراءته لجهود التقريب بين المذاهب وتحقيق الوحدة بين المذاهب والجماعات الإسلامية المختلفة، التي قام بها فقهاء وعلماء دين مصلحون عرب وغير عرب مثل الأفغاني ومحمد عبده وعلماء دين آخرون من مصر ولبنان والهند وإيران. إما الجهود والدعوات التوحيدية التقريبية لعلماء دين مصلحين عراقيين مثل: السيد هبة

الـدين الشهرسـتاني، والشـيخ محمـد الحسـين كاشـف الغطـاء والشـيخ عبـد الكـريم الزنجـاني والشـيخ محمـد رضـا المظفـر... وغيرهـم، فـيمكن الافـتراض أنهـا حظيـت باهتمـام أكـبر لـدى الشهيد الصدر، وفهم تمثل أكبر لدلالاتها وأبعادها ولتأثره بها، بالتالي، لتكون أحد المصادر المهمة في صياغة منهجه التوحيدي التقريبي.

وفي ضـوء ذلـك كلـه، نعـود إلى طـرح السـؤال الـذي يطرحـه كثيرون حول السبب بعدم إفراد الشهيد الصدر، أو تخصيصه، كتابًا او بحثًا مستقلاً يتناول فيه مسألة التقريب بين المذاهب والوحـدة الإسـلامية، كمـا تناولهـا وعـبر عـن رؤيتـه ومنهجـه في معالجتها فقهاء ومفكرون مصلحون آخرون؟

ربمـا سـُئل الشـهيد الصـدر، أو لم يُسـال، في حياتـه مثل هـذا السؤال. ونظرًا لعدم وجود جواب عن ذلك ـ في حدود اطلاعي ـ فيمكن افتراض أكثر من سبب، او مبرر، لذلك. فقد يكون السبب، أن هذه المسألة لم تكن مطروحة بقوة في حياته، مما يستوجب أن يفرد لها بحثًا مستقلاً، وربما كان سيقوم بذلك حين أراد النظام تسعير الخلاف المذهبي، فكانت النداءات، لاسيما النداء الثالث، بمثابة مقدمة لذلك. وربما كان الصدر يعد لمثل هذا البحث قبل النداءات الثلاثة، لكن مساحة الوقت الضيقة لديه لم تساعده في إنجاز ذلك... وربما تكون هناك أسباب أخرى، **غير أنني أرى، أن الأمر المرجح هو تعمد الصدر بذلك،**

استنادًا إلى رؤية تقول: إن الغوص في تفاصيل الخلاف المذهبي، رغم الدعوة للتقريب، قد تثير قضايا لا تستوجب مصلحة الوحدة الإسلامية ومصلحة الاجتماع الإسلامي في العراق إثارتها، لذلك كان يفضل، كما أعتقد، التعامل مع هذه المسألة ومعالجتها من خلال تناولها بشكل غير مباشر، عبر تناول الإسلام بنظرة شمولية، ومن خلال صياغة منهج توحيدي إسلامي، كأداة لرؤية هذه المسألة كما المسائل الإسلامية الأخرى.

ومن خلال تفحص كتابات الشهيد الصدر وبحوثه ودراساته والتأمل فيها، يمكن القول: إنه كان يهدف ويسعى، بنظرته الشمولية للإسلام وبمنهجه التوحيدي، إلى خلق ثقافة ورؤى وأدوات بحث إسلامية موحدة لكل المسلمين... ثقافة لا تلغي المذاهب، إنما تتجاوز أطرها المحددة إلى الإطار الإسلامي الأوسع. وحين تُعمم هذه الثقافة لدى المسلمين، وخاصة لدى نخبتهم المثقفة من العلماء المصلحين والمفكرين والكتاب، سيتضاءل أمام ذلك حجم الخلافات، أو تشذب وتحذف تعبيراتها الضارة، أو العدائية، وغير الصحيحة، لتبقى الخلافات الموضوعية قائمة، كاجتهادات يدور السجال حولها تطلعًا لما يقرب موضوعيًا بين المذاهب ويصون وحدة الاجتماع الإسلامي.

وإذا كانت أعمال الشهيد الصدر تعبر عن محاولاته المنهجية «التأصيل لنظريات إسلامية في كل حقل من حقول المعرفة الإسلامية» وذلك بمنهج توحيدي ونظرة شمولية للإسلام، كما

أشرنا لذلك في هذا البحث، فقد تناول الصدر، كتطبيق عملي لمنهجه التوحيدي ونظرته الشمولية مسألة التقريب، أو الخلاف الشيعي السني، في ندائه الثالث.

وفي هذا النداء، ثمة أمران مهمان ينبغي الإشارة إليهما: الأول، هو أن الشهيد الصدر لم يدع لحشد المسلمين الشيعة وحدهم بقصر دعوته عليهم لمواجهة النظام وإفشال محاولته إثارة فتنة مذهبية، وهو أمر كان من الممكن حصوله ويحظى بتعاطف عموم المسلمين السنة خاصة حين يتم كما فعل الصدر التفريق بينهم وبين النظام اللاسني أصلاً. غير أن الصدر عمد إلى اعتبار قضية مواجهة النظام وفتنته، هي قضية جميع المسلمين سنة وشيعة، ناهيك عن بقية العراقيين، وهو الأمر الذي تجلّى بمناشدة العراقيين بانتماءاتهم المذهبية والإثنية والمناطقية، وبتسميات محببة إليهم مثل: يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر، أي مناشدتهم بمنهج توحيدي إسلامي، كمسلمين موحدين بإطار موحد يجمعهم ضد عدو مشترك، مع احتفاظ كل منهم بانتمائه المذهبي أو العرقي.

أما الأمر المهم الثاني، فهو تأكيد الصدر على ان الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون وكان يقوم على أساس الإسلام والعدل قد حمل عليًا للدفاع عنه وحارب كجندي في حروب الردة تحت لواء الخليفة أبي بكر، وهذا لا يعني فقط تجاوز رأي بعض الذين يقولون بـ «بطلان التاريخ» إنما تصحيح

التاريخ، كما صححه الإمام علي والأئمة المعصومون من بعده، ويعني أيضًا، اعترافًا بوقائع تاريخية حصلت فعلاً، ولا يجدي أو يفيد إنكارها بشيء. ورغم أن مثل هذا الكلام لا يرضي شريحة من شرائح المسلمين الشيعة، لكن الشهيد الصدر تعمّد قوله، بمنهج وحدوي، ليعبد الطريق لرؤى أكثر وضوحًا وأكثر جرأة، لكن أكثر تعبيرًا وتوافقًا وانسجامًا مع موقف الإمام علي وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام.

إن قول الإمام علي: «لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور، إلاّ عليّ خاصة» والذي قاله وهو «في أشد حالاته إيلامًا» قد شكل الأساس، كما اعتقد، في قراءة الشهيد الصدر للتأريخ الإسلامي، وخاصة تاريخ الانقسام والصراع والخلافات المذهبية والتقريب بينها في الاجتماع الإسلامي... إنها قراءة لهذا التاريخ وتمثل لأبعاده ودلالاته، عبر تناوله نظرة شمولية للإسلام وبمنهج توحيدي يرتقي بأهمية الوحدة الإسلامية إلى مرتبة «المقدس» باعتبارها الحافظة لكيان الاجتماع الإسلامي الذي تنتعش وتتعايش في داخله المذاهب، كاجتهادات مشروطة ومطلوبة للتعبير عن حيوية الحياة الإسلامية واستجابة لمتطلبات الظروف المتجددة.

آراء في حركة التاريخ

• لعل تفاقم الأزمات في العالم الإسلامي دفعت الشهيد الصدر إلى التفكير في حركة التاريخ • يمكن العثور على الأفكار التأسيسية للشهيد الصدر متناثرة في كتبه • ممن حاول اكتشاف رأي القرآن في حركة التاريخ مالك بن نبي وعماد الدين خليل • استمرّ الفكر الكنسي مسيطرًا على أوربا حتى عصر النهضة • الماركسية لا تستحق أن نقف عند تفسيرها العلمي للتاريخ.

مقدمة

كلما ادلهمت الخطوب وزادت التحديات يتجه التفكير إلى استشراف مستقبل المجتمعات البشرية، من خلال دراسة حركة التاريخ ومحاولة استنباط سنن تتحكم في هذه الحركة.

فقد وضع القديس أوغسطين نظرية (العناية الإلهية) في فلسفة التاريخ حين رأي تداعي العالم القديم وسقوط روما، ووضع ابن خلدون نظرية (التعاقب الدوري للحضارات) في حركة التاريخ حين شهد هبوط منحني الحضارة الإسلاميّة في عصره، ودخول نابليون ألمانيا دفع بهيغل أن يضع نظرية في فلسفة التاريخ، كما أن الحرب العالمية الأولى أفرزت نظريات عديدة في هذا المجال أشهرها نظريات (شبلنجر) و(تونبي)، والتفسير الماركسي للتاريخ كان وليد سيطرة رأس المال على مقدرات الشعوب.

ولعل تفاقم الأزمات في العالم الإسلامي واشتداد صراع الأمواج الفكرية الوافدة فيه، وانحدار عزة الإنسان المسلم وتصاعد ظاهرة البطش والإرهاب فيه دفعت السيد الصدر إلى التفكير في حركة التاريخ وسنن هذه الحركة، ومحاولة استنباط النظرية القرآنية لمسيرة البشرية.

إن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بهذا المفكر الكبير دفعته إلى أن يجيب على أسئلة ملحة في عصره، وصرفته إلى حد كبير عن الفكر التأسيسي التنظيري، ولكن يمكن العثور على الخطوط العامة لكثير من الأفكار التأسيسية متناثرة في أبحاثه، ومنها نظريته التي حاول أن يستقيها من القرآن في حركة التاريخ، ونحن اليوم بحاجة ماسة للتفكير عميقًا بموقع أمتنا على ساحة التاريخ وبمستقبلها في ظروف التحديات الدولية الجديدة التي فرضتها ظروف انفراد الهيمنة الدولية والعولمة والغطرسة الصهيونية.

وقفات السيد الصدر في فلسفة التاريخ:

لمفكرنا الكبير اهتمام كبير بالواقع الاجتماعي وحركة المجتمع، ومستقبل الأمة الإسلاميّة، هذا الاهتمام نجده في كل مؤلفاته ولذلك يتعرض بإشارة عابرة في كثير من كتاباته لمسيرة المجتمع التاريخية، أكتفي منها بوقفات ثلاث:

١ ـ كتاب *فلسفتنا*: في هذا الكتاب يطرح السيد الصدر

بشكل عابر رأيه في العامل الغريزي لحركة الإنسان والجماعة الإنسانية على ظهر الأرض وهو (حب الذات) ويرى أن هذه الغريزة أصل كل الغرائز الأخرى بما في ذلك غريزة المعيشة. وحب الذات يكمن وراء الحياة الإنسانية كلها ويوجهها بأصابعه[1].

ويعبر السيد عن هذه الغريزة أيضًا بحب اللذة وبغض الألم وبها يفسر كل سلوك الإنسان لا في مجال الأنانية فحسب، بل في مجال الإيثار أيضًا[2].

وهذه الوقفة هامة رغم أنها سريعة وعابرة، لأنها تفسر كل آراء مفكرنا في سبب المآسي التي تعيشها البشرية في ظل الأنظمة المادية، وفي قدرة (الدين) على حل مشكلة البشرية على مر التاريخ وكل ما تناوله في كتاب *فلسفتنا* إنّما استهدف إبطال النظرية المادية فلسفيًا، أي مبدئيًا، ليكون مقدمة لبيان بطلان الأنظمة القائمة على أساس هذا المبدأ المادي، وعدم قدرتها على حل المشكلة البشرية المتمثلة في إقامة المجتمع السعيد.

٢ ـ كتاب *اقتصادنا* وفيه عرض واسع لأشهر نظرية لفلسفة التاريخ وهي (المادية التاريخية) وردّ أدلتها الفلسفية والسيكولوجية والعلمية، ودراسة الرأسمالية وأركانها الأساسية، والخروج بنتيجة هي عدم قدرة هاتين المدرستين على

---

١ - فلسفتنا، ص ٣٦.

٢ -م. ن ص ٣٧ وما بعدها.

حل المشكلة الإنسانية، لأن طريقة معالجتها لغريزة حب الذات تتجه نحو تركيز التناقضات والصراعات على الساحة البشرية لا حلّها، وكل منهما يشكل دفعه حركية على الطريق، لكنها تمنى بالتناقضات وتسفر عن مآس، فالماركسية تتبنى تفجير الدوافع الذاتية في الطبقة المسحوقة وتدفعها إلى انفجار ثوري، قد يحقق شوطًا من العدالة الاجتماعية، لكنه يبقى يواجه مشكلة حب الذات التي تعمل على إفشال تجربة هذا الشوط من الطريق والرأسمالية تتبنى التركيز على الدوافع الذاتية لدى الطبقة المرفهة، وتحقق بذلك تقدمًا على الطريق، لكنه تقدم مقرون بظلم وحيف واستغلال وامتصاص دماء ويخرج من ذلك بنتيجة هي إن الدين وحده القادر على تربية غريزة حب الذات تربية تقي المسيرة التاريخية من التناقضات والصراعات.

٣ ـ مجموعة دروس السيد في إطار التفسير الموضوعي، وفيها محاولة اكتشاف رأي القرآن في مسيرة التاريخ. وفي هذه الدروس طرح السيد فكرًا تأسيسيًا يصلح أن يكون أساسًا للنظرية الاجتماعية الإسلاميّة في حقل المجتمع والتاريخ، وأظنه الأساس لما كان ينوي السيد تقديمه في *مجتمعنا*.

في هذه المحاضرات يطرح السيد ما يلي:

ألف ـ التاريخ ـ بحسب رأي القرآن ـ له سنن مذكورة في النص القرآني بأساليب وأشكال مختلفة.

ب ـ الخصائص العامة لهذه السنن.

ج ـ التحليل القرآني لعناصر المجتمع.

د ـ دور الإنسان في الحركة التاريخية.

هـ ـ نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية (نظرية المثل الأعلى).

الدراسات الموجودة عند المفكرين المسلمين:

قبل أن ندخل في دراسة مقارنة لفكر السيد الصدر في حركة التاريخ يحسن بنا أن ندرس الآراء المطروحة في الساحة الفكرية بشأن فلسفة التاريخ ونقسمها على قسمين:

آراء المفكرين المسلمين، وآراء المفكرين غير المسلمين وأقدم ما وصلنا من رأي في تاريخ الفكر الإسلامي بشأن فلسفة التاريخ هو رأي ابن خلدون ونظريته بشأن (التعاقب الدوري للحضارات).

ومهما اختلفت التفسيرات لهذه النظرية فمن المسلم أنها ترى للتاريخ قوانين خاصة يمكن دراستها من مجموع الظواهر الاجتماعية في الأمم المختلفة[1].

وترى أن الأمم تمر بثلاث مراحل، الأولى تنشأ على أساس (عصبية) أو قل محفز حركي يدفع الجماعة لكي تنسجم وتتحرك وتحقق هدفًا كبيرًا.. ثم مرحلة التحضر وهي المرحلة التي تلي تكوين المجتمع ونموه عقليًا وعمرانيًا واقتصاديًا، ثم طور التدهور حين تصل الدول والحضارات إلى الهرم.

---

١ - زينب الخضيري، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، ص ٧٤ .

والملفت في نظرية ابن خلدون أنّه يشير إلى اشتراك العوامل في تحول الأمم من حالة إلى أخرى، فالعامل في خلق المرحلة الأولى هو (العصبية)، وهذه العصبية هي التي تؤدي في المرحلة التالية إلى الحضارة من أجل إيجاد مجتمع قوي قادر على المقاومة والغلبة، ثم إن هذه الحالة المتحضرة وما يكتنفها من ظواهر تؤدي إلى السقوط والاضمحلال، وهذه ملاحظة هامة في فكر ابن خلدون تفيدنا في مقارنتها بالآراء الأخرى وبرأى السيد الصدر. وأنقل هنا عن ابن خلدون ما يقرره بشان دور (الترف) (وهو الظاهرة التي يفرزها المجتمع المتحضر) في انهيار الأمم والدول، وهو تقرير يساعدنا في عملية المقارنة فيذكر:

«إن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات، وتثير مذمومات الخلق فضلاً عن أن الترف يذهب خشونة أهل البداوة، ويضعف العصبية والبسالة، حتّى إذا انغمسوا في النعيم فإنهم يصبحون عيالاً على الدولة، كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم... ويرى: أن الترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة، الترف مفسد للخلق بما يحصل للنفس من ألوان الفساد والسفه، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس إلى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها، حتّى يتفشى الخلاف والتحاسد ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ويفضي إلى المنازعة ونهاية الدولة»[1].

---

١ - مقدمة ابن خلدون، ص ١٦٨ .

وحاول بعض المعاصرين اكتشاف رأي القرآن في حركة التاريخ منهم مالك بن نبي وعماد الدين خليل.

مالك بن نبي رأى أن مكونات الحضارة ثلاثة هي: الإنسان والتراب والوقت، ولكن هذه العناصر الثلاثة لا تتفاعل إلا بمعامل يوفر الجو لهذا التفاعل، ورأى أن هذا المعامل هو (الفكرة الدينية) فالدين بما يملكه من قدرة دافعة يحرك الإنسان نحو صنع الحضارة في وقت قصير نسبيًا، ثم تعتري المسيرة بعض الشوائب مما يجعلها غير قادرة على الارتفاع العمودي، فتطوي مرحلة أفقية، وبعد استفحال تلك المعوقات تهبط الدفعة الدينية والمستوى الروحي ويتجه الخط البياني للمسيرة نحو الهبوط[1].

والملاحظ في فكر مالك بن نبي أنّه يرى في الدين أساس بناء أية حضارة، والدين يمثل القوة الدافعة لتفاعل الإنسان تفاعلاً إيجابيًا معطاء مع التراب، ثم إن الفترة الزمنية التي يسير فيها الخط البياني بصورة أفقية، وهي الفترة العقلية في رأي ابن خلدون، إنّما هي من بقايا الدفعة الضخمة التي خلقها الدين في المجتمع واتجاه الخط إلى السقوط إنّما هو بسبب هبوط (الطاقة الإيمانية).

أما عماد الدين خليل فقد خصص دراسة مستقلة لهذا الموضوع

---

١ - شروط النهضة، ٧٣ - ٨٠.

في كتابه *التفسير الإسلامي للتاريخ* ، لكنه لم يخرج بنظرية محددة، بل ركز على أن سنن التاريخ هي أشبه بالجزاء الذي هو من جنس العمل[1].

وبيّن العوامل المؤثرة على مصير الأمم والشعوب ومنها نفسية الأمة وعقيدتها وعلاقاتها مع بعضها وعلاقتها مع الله سبحانه، ثم دور الأفذاذ في الأمة[2].

وأشار إلى نظرية (التحدي والاستجابة) التي سنبينها عند حديثنا عن نظرية توينبي ورأى أن التحدي يتمثل بالموت. وتطويع المادة، وذهب إلى ما ذهب إليه مالك بن نبي بشأن دور الإيمان في الإنتاج الحضاري[3].

والأستاذ مرتضى مطهري كانت له محاولة غير مكتملة في التفسير القرآني لحركة التاريخ دونها في كتابه *المجتمع والتاريخ* ركز فيه على رفض المادية التاريخية في تفسير التاريخ، ثم استعرض الروايات المختلفة في هذا المجال، وأكد أن أغلب هذه النظريات لا ترتبط بالجواب على المسألة الهامة التي هي في اعتقاده: سر تطور الحياة الاجتماعية للإنسان دون سائر الحيوانات، لأن الجواب على هذا السؤال يكشف عن العامل

---

١ - د. عمان الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١٠٨ .

٢ - م.ن. ص ١٥٦ .

٣ - م.ن. ص ٢٢٥ .

المحرك لتطور الحياة الاجتماعية وعن الغاية التي تتجه إليها المسيرة البشرية[1].

ثم تبسط في طرح رأي القرآن في حركة التاريخ وقال إنها «تتجه نحو انتصار الإيمان على الإلحاد وانتصار التقوى على الفجور، وانتصار الصلاح على الفساد، وانتصار العمل الصالح على العمل الطالح» والواقع أن الشيخ مطهري كان مدفوعًا في هذا الكتاب بالرد على الأفكار والتصورات الخاطئة التي سادت المجتمع الإيراني على أثر انتشار الفكر الماركسي.

دراسات غير المسلمين

فكرة العناية الإلهية نجدها في أفكار حضارات الإنسان عبر التاريخ، على سبيل المثال نجد أن المصريين والبابليين والآشوريين والأكاديين واليونانيين القدماء آمنوا بأن الإنسان جزء من الكون، ومن ثم يسري عليه ما يسري على الكون من قوانين.

ويتميز بنو إسرائيل وحدهم عن سائر البشر باعتقادهم أن هذه العناية الإلهية خاصة بهم، باعتبارهم شعب الله المختار[2].

---

١ -المجتمع والتاريخ، مرتضى مطهري، ص ٢٠٥، واعتمدت في هذا العرض السريع على طبعة لبنانية مغلوطة سيئة جدًا لترجمة كتاب (جامعة وتاريخ) ولم تتوفر لي الطبعة الأولى من الترجمة التي أنجزها كاتب هذه السطور، وطبعتها مؤسسة البعثة. في جزأين. والغريب أن الطبعة اللبنانية أعادت نفس طبعة مؤسسة البعثة بشكل سيء مغلوط مع حذف اسم المترجم لحسن الحظ .

٢ - د. رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ، ص ٧٢ .

وهذا التوجه القديم في الحضارات يشير من جهة إلى دور الدين في نشوء الحضارات العالمية، كما يشير من جهة أخرى إلى الجدل القديم الدائر في علاقة الإنسان بالله وما يستتبعها من مسائل الجبر والتفويض، ومساحات الافتراق والالتقاء بين دور الله ودور الإنسان في ساحة التاريخ والمجتمع، وهو جدل لا يزال قائمًا حتّى اليوم.

المؤرخون في العصر اليوناني والروماني آمنوا بوجود قوة إلهية مقدسة، لكنهم ذهبوا إلى أن حركة التاريخ تنطلق من إرادة الإنسان، والإرادة الإلهية تتدخل لدعم إرادة الإنسان الحرة[1].

ثم يسود الفكر المسيحي الذي يرى (سقوط آدم) من الجنة خطيئة مستمرة في ذرية آدم تباعد بينهم وبين الله، وتأخذ العناية الإلهية مفهومًا جبريًا تعفي الإنسان من صنع تاريخه وتوكل الأمر لمشيئة الله وحده.

ويعتبر القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٥٠ م) من أهم المفكرين الذين عالجوا فكرة حركة التاريخ وفقًا للفهم المسيحي في كتابيه *مدينة الله والاعترافات*، ويقرر وجود مدينتين على ظهر الأرض.

(مدينة الله) أو مدينة السماء، و(مدينة الأرض) أو مدينة الشيطان، ويرى ضرورة خضوع الدولة للسلطة الروحية الكنسية

---

١ - د. أحمد صبحي، في فلسفة التاريخ ص ١٦٧ .

حتّى تتحقق سعادة الدنيا والآخرة[1].

واستمر الفكر الكنسي مهيمنًا على أروبا حتّى عصر النهضة، حين ظهر مفكرو عصر التنوير، وحملوا فيه على فكرة الكنيسة التي ترى أن جنة الإنسان كانت في الماضي، وذهبوا إلى أن الجنة على ظهر الأرض ستتحقق في المستقبل بفضل التطور العلمي. أشهر هؤلاء المفكرين (فولتير) و(كوندوروسيه).

فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٧ م) حمل على الكنيسة بشدة لا على الدين، و رأى في نفسه قائدًا لحملة صليبية ضد المسيحية وكان شعار حملته (امح العار).

ويقصد العار جميع الوساوس والشعوذات الكهنوتية التي كبل بها رجال الكنيسة حياة الناس[2]. وشن هجومًا عنيفًا على الأساطير التوراتية التي كونت الفكر المسيحي، وقال: من الخطأ الظن بأن اليهود كانوا مضطهدين في الدولة الرومانية أو غيرها لقولهم بإله واحد في عالم وثني، بل لأنهم يكرهون الأمم الأخرى وقد وصف اليهود بأنهم شعب متبربر لئيم جاهل، يزدري أكثر الأمم حضارة وأنهم أحقر شعوب الأرض[3].

وكوندورسيه (١٧٤٣ ــ ١٧٩٤ م) قسم حياة البشرية منذ نشأتها حتّى قرنه (الثامن عشر الميلادي) على تسع مراحل تبدأ

---

١ - د.إسحاق عبيد، معرفة الماضي، ص ١٨.

٢ - د.أحمد صبحي المرجع السابق ص ١٦٩ .

٣ - ويل ديورانت، قصة الفلسفة من سقراط إلى جون ديوي، ص ١٠٤ .

بحياة الإنسان البدائية وتنتهي بظهور (فرنسيس بيكون) و(غاليلو) و(ديكارت)، وأكدأن تقدم العلم سوف يحقق كل ما تحلم به البشرية من آمال في حياة مفعمة بالسعادة الفكرية والخلقية والاجتماعية[1].

وباندلاع الحروب في أوربا واتساع الحركة الاستعمارية تبددت الآمال في قدرة العالم وحده لخلق معجزة السعادة البشرية فظهر (كانت) (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ م) ليوفق بين نظرية التقدم ونظرية العناية الإلهية، غير أنّه أطلق على العناية الإلهية اسم (الطبيعة) كي يبتعد عن تبعة سمعة الكنيسة، ورأى أن روح العدوان والحروب ستستمر في البشرية ولا يمكن استئصالها لكنها تتجه بمجموعها إلى غاية مرسومة «وأن الصراع من أجل الوجود ليس كله شرًا، وبالرغم من ذلك فسرعان ما يدرك البشر أن هذا الصراع يجب حصره داخل حدود معينة، وأن تنظمه القواعد والعادات والقوانين، وهنا يكمن أصل تطور المجتمع المدني»[2].

وأكد «أن الأفراد حتّى لو بدا منهم أنهم يتصرفون وفق إرادتهم، فإنهم يحققون هدف الطبيعة المجهول»[3].

ويلاحظ في آراء كانت فكرة الغائية في مسيرة البشرية وارتباط هذه الغائية بأهداف ميتافيزيقية مجهولة، وضرورة

---

١ - د. أحمد صبحي المرجع السابق، ص ١٨٣.

٢ - ن.م.ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

٣ - د. رأفت غنيمي الشيخ، مصدر سابق، ص ١٢١ .

الصراع للدفاع عن الوجود، وهذا الصراع هو أساس كل نمو في البشرية[1].

ولعل الماركسية كانت أشهر نظرية في تفسير التاريخ، غير أن المسألة العلمية والكشف الموضوعي عن واقع حركة التاريخ لم يكن يهم الماركسية، بل كان المهم فيها الدفاع عن الطبقة المسحوقة من المجتمعات في ظل طغيان الرأسمالية، ولذلك انتشرت الفكرة في البلدان المستضعفة التي شعرت فيها الشعوب بالظلم والحيف ولا تستحق الماركسية أن نقف عند تفسيرها العلمي للتاريخ، فهي أساسًا متحيزة للطبقة الكادحة وحزبية[2]، وكل دراساتها تنحو هذا المنحى ورغم سقوطها عمليًا من الساحة السياسية، فإنها ستبقى فكرة تدافع عن المسحوقين، وتدغدغ الأذهان كلما ازداد تعنت القوى المالية المهيمنة، ومظاهرات سياتل وغيرها من المظاهرات الأوربية الصاخبة ضد العولمة الاقتصادية خير دليل على ذلك ويطول بنا الحديث لو أردنا استعراض نظريات العلماء الأوربيين والأمريكيين في هذا المجال فنكتفي بالوقوف عند كتاب (فوكوياما): *نهاية التاريخ والإنسان الأخير* ففيه ملاحظات هامة تعبر عن آراء علماء الغرب وأمريكا في مجال حركة التاريخ، خاصة ما يرتبط بمسيرة المجتمعات البشرية في ظل السيادة الأمريكية على العالم.

---

١ - د. أحمد صبحي، مرجع سابق ص ٢٢٠ .

٢ - أنظر آراء الماركسيين بشأن الروح الحزبية في العلوم، اقتصادنا ص١٣٠.

ـ حاول الكتاب أن يفهم مسيرة التاريخ من خلال فهم طبيعة الإنسان، وهي محاولة ناجحة لأنها تنم عن إيمان مسبق بأن الإنسان محور حركة التاريخ. يعرض تسلسلاً لأفكار العلماء في حركة التاريخ يبدأه من أفلاطون حيث يرى أن الكائن الإنساني يتكون من ثلاثة مركبات: جزء راغب، وجزء عاقل، وجزء يسميه تيموس (Thymos) أو روح الحياة وهناك جزء كبير من السلوك الإنساني يمكن تفسيره من خلال اندماج العنصرين الأولين: الرغبة والعقل، فالرغبة تدفع البشر للبحث عن أشياء موجودة خارج ذواتهم، بينما العقل والحساب يبينان لهم أفضل السبل للحصول عليها، ولكن بالإضافة إلى ذلك يبحث الإنسان عن الاعتراف بكرامته الذاتية أو بكرامة الشعب أو الأشياء أو المبادئ التي يشحنها بالكرامة، وهذا الجزء من الكائن الذي يسميه أفلاطون: تيموس هو نوع من الإحساس الفطري لدى الإنسان بالعدالة[1].

ـ يقيم هيغل رأيه في التاريخ على أساس نظرية أفلاطون، ويرى أن الرغبة بأن يعترف بالإنسان ككائن إنساني مشحون بالكرامة تقود إنسان بداية التاريخ إلى صراعات حتّى الموت من أجل الاعتبار وينتج عن هذا الصراع انقسام المجتمع إلى طبقتين: الأسياد الذي لم يترددوا في المخاطرة بحياتهم. والعبيد: الذين

---

١ - نهاية التاريخ، ص ٢٧ ـ ٢٨.

تخلوا عن المخاطرة بسبب خوفهم الطبيعي من الموت ويرى أن الثورة الفرنسية ألغت التمييز بين السيد والعبد لذلك لم يعد هناك بعد اليوم إمكان تغيير تاريخي نحو تقدم أكبر.

ـ التفسير الأنكلو ـ ساكسوني للإنسان الذي نظره (هوبس) و(لوك) والآباء المؤسسون للديمقراطية الليبرالية مثل (جيفرسون) و(ماديسون).

وهذا التفسير اعتبر الرفاهية المادية أساسًا لحركة الإنسان نحو الاعتراف بالذات بينما رفض ذلك هيغل ذاهبًا إلى أن ما يرضي الكائنات الإنسانية كليًا ليست الرفاهية المادية بقدر ما هو الاعتراف بمقامهم وبكرامتهم[1].

ـ فسّر فوكوياما الوضع الاقتصادي والسياسي في العالم على أساس التيموس أو الاعتراف بالكرامة الإنسانية، ورأى أن الديمقراطية الليبرالية تحقق هذا الهدف الإنساني بينما فشلت الشيوعية لأن الناس أدركوا أنها لن توفرلهم إلا شكلاً غير مكتمل من الاعتراف[2].

ـ بيّن فوكوياما الثغرات الموجودة في الديمقراطية الليبرالية القائمة على أساس الاعتراف بالوجود، ذاكرًا أن هذا الاعتراف هو المشكلة المركزية للسياسة لأنه أساس الاستبداد والامبريالية

---

١ - ن. م. ص ٢٨ .

٢ - ن. م. ص ٢٩ .

ورغبة السيطرة، كما أنها ستخلق تمييزًا طبقيًا يصادر كرامة الفقراء[1].

أشار فوكوياما إلى ظاهرة من ظواهر المجتمعات الليبرالية الديمقراطية، لكنه فسرها تفسيرًا سيئًا فقد أشار إلى ثورة الطلبة في فرنسا عام ١٩٦٨، زاعمًا عدم وجود بواعث (عقلانية) للثورة «نظرًا لكونهم بغالبيتهم الخَلَف المدللين لأحد أكثر المجتمعات تحررًا ورخاء على وجه الأرض» ويرى أن الذي قادهم إلى النزول إلى الشارع وزلزلة حكومة ديغول هو الرغبة في (متعة النضال)، «إذ ليس بوسعهم تخيل أنفسهم في عالم بدون صراعات»..

(وما كانوا يرفضونه هو الحياة في مجتمع أصبحت فيه المثل عمليًا مستحيلة)[2].

إن فوكوياما يرى أن كل (المثل) تتحقق في المجتمع الليبرالي الديمقراطي، ومع ذلك يثور الإنسان في هذا المجتمع، ولكن لا يجد ما يثور عليه سوى مكتسبات المثل التي ناضل من أجل تحقيقها الجيل السابق.

وسنعود إلى نقد هذا الرأي عند مقارنته بالسنن بالتاريخية التي يستخرجها السيد الصدر من القرآن الكريم في العدد القادم بإذن الله.

---

١ - نهاية التاريخ، ص ٢٩.

٢ - ن. م. ص ٢٩ ـ ٣٢.

قصيدة السيد مصطفى جمال الدين
يخاطب بها الأمة الإسلامية

• الخطاب الأدبي في النجف الأشرف يقوم على عودة إشعاع النبوة في دم الأمة• جمال الدين يمارس الضرب على وتر الشعور والهمم لإيقاظها • يركز الشاعر على قدرة القرآن الإحيائية • يرى الشاعر أن الطائفية أسوأ ما سعى الأعداء فينا.

هذه القصيدة بمقاطعها المختلفة وبأبياتها التي تزيد على الثمانين تشكل المنظومة الشعورية لأتباع آل البيت في العراق، وتعبّر عن توجّه الشيعة عامة والنجف بشكل خاص إلى «الرسالية» ورفضهم للطائفية (الديوان ٢٣٣ – ٢٤٢). أنشد هذه القصيدة بمناسبة الانتفاضة الشعبانية في العراق وما تعرض له الشعب العراقي من انتقام نظام صدام (سيد النخيل المقفى، ص ٥١١ – ٥١٤).

مطلع القصيدة فيه دعوة إلى عودة إشعاع النبوة في دم الأمة، وبهذا الإشعاع ستعود إلى غدها.. أي إلى استئناف مسيرتها الحضارية التي تتناسب مع الغد، أي مع الحاضر والمستقبل:

عُودي لأمسكِ ينطلق منكِ الغدُ ما شعَّ في دمِكِ النبيُّ محمدُ

وبنظرة حضارية يرى أن الثقافة الإسلامية فيها كل العناصر التي تضخّ دمًا جديدًا في عروق الأمة متى ما اعتراها خريف، فيعود عودها أملدًا (غضًا)، ذلك لأن جذورها ممتدة إلى أعماق السنين، ورؤيتها نحو النجوم (أي نحو السماء ونحو الكمال المطلق). فالقرآن والسنّة فيهما من عناصر الإحياء ما يعيد إلى الوجوه نضارتها وإلى العقول نورها، وإلى القلوب تودها وحبّها وعواطفها. وكما أن الإسلام حوّل صمّ الجنادل السود (كناية عن القلوب غير المهتدية) إلى مقصد الكواكب المضيئة، وكما حوّل ضحايا الجاهلية إلى حِمم (طاقات ضخمة) وليلهم البهيم إلى فرقد (مضيء)، كذلك يستطيع اليوم أن يحيي هذه الأمة. يقول:

يا أمة يبسَ الزمانُ، وعودُها ... ريّانُ من نَبعِ النبوّةِ أملَدُ
تَسري بأعماقِ السنينِ جذورُهُ ... وتشدُّ أذرعَهُ النجومُ فيصعَدُ
ما ارتاعَ من عسف المُحول ولاانثنى ... بيد العواصفِ فرعُهُ المتأوِّدُ
ومذِ اشتكت تلك الجنائنُ حولهُ ... ممّا يعيثُ بها الخريفُ الأجرَدُ
ألقى رواءَ الهدي بين غصونها ... فأفاقَ حتى الهامِدُ المتقصِّدُ
وسرت بها بعدَ الذبولِ غضارةُ الـ ... ـقرآنِ، تُخصبُ روحَها، وتُوَرِّدُ
وتَطلّعتُ فإذا بسُنَّة أحمدٍ ... سحُبٌ يفيضُ بها النعيمُ ويرفُدُ
وإذا النُبوّةُ في الوجوه نضارةٌ ... والعقلِ نور.. والقلوبِ تَوَدُّدُ
وإذا بصرعى الجاهليةِ في الوغى ... حُمَمٌ.. وفي ليل المتيهَةِ فرقد
وإذا بمكّةَ وهي صمُّ جنادلٍ ... سودٍ، لمؤتلقِ الكواكبِ مقصدُ

والمقطع الآخر من القصيدة يبدأه بقوله:

عُودي لدربكِ لا يصدّنك أنّـه عَسِرٌ.. ودربُ الآخرين مُعبَّد

وفيه يمارس الشاعر الضرب على وتر الشعور والهمم لإيقاظها، فالمجدُ مقرون بالتضحية والفكر يحتاج إلى عزيمة لا ترف، وإلى حرارة لا برودة جليد.

ولابدّ أن تستند هذه العودة إلى أصالة، فَطَرقُ باب الآخرين لاستجداء الدواء منهم لا فائدة منه. والجديد يجب أن يُبنى على القديم، ووهجُ الحضارة سيكون أبتر إذا لم يقم على أرض صلبة وفي قمة منيفة. يقول:

وبأنّ أمسَكِ، من متاعبِ شوطِهِ هرِمٌ.. ويومَكِ، من صقالِ، أمرَدُ
فالمجـدُ لا ترقـى إليـه أمَّـةٌ لم يُـبْنَ فيها بالضحايا مِصعَدُ
والفكرُ لم يقبسهُ يومًا خاطرٌ تَـرِفُ المجسَّـةِ، من جليد أبردُ
عودي؛ لأنّ غدًا طرقتِ رتاجَهُ بابٌ – بغير جلالِ أمسكِ – مُوصَد
يُبنى الجديدُ على القديمِ، وخيرُ ما يبقى من النشَبِ الطريفُ المُتلِدُ
ويغورُ في النسيان وهجُ حضارةٍ بتراءَ، لم يَرفع سناها مَحتِدُ
سُنَنُ الحياة: على الرمالِ قلاعُها تهوي، وفي القِمَمِ المنيفةِ تخلُدُ

وفي المقطع التالي يركز على قدرة القرآن الإحيائية للأمة. فهو عامل طراوتها وخشوعها وفتوحها ومعارفها. وتأثيره بالغ حتى في القلوب المتحجّرة، والشعر على قدرة تأثيره لا يبلغ ما بلغه القرآن من التأثير، ويعتب على الأمة أنها أدرت ظهرها للقرآن، وأنها حولته إلى وسيلة تبرّك، وإلى عادة ترددها الشفاه. بينما ينبغي أن يكون وهجًا ينير درب الهداية يقول:

يـا أمّـةَ القـرآنِ لم يـذبُلْ علـى ... شـفتيك هـذا اللؤلـؤُ المتوقّـدُ
تندى به، خَضلَ البيـان، تـلاوةٌ ... وينثّـهُ، عَطِرَ الخشوع، تهجّد
وتشِـبُّ فيـه بـالفتوح سـريَّةٌ ... ويضـجُّ منـه بالمعـارف مسـجد
ويكـاد حتى الصخر لو رنّت به ... آياتُـهُ، يصـغي لهـا، ويـردّد
هدرت به لغةٌ، كأن حروفها ... من طيب ما حَمَلت، شذى متجسّد
تتساءَلُ الكلماتُ، وهـي تُقلّبُهُ: ... من أين هذا الفارسُ المتفـرّدُ؟!
للشـعر ننسـبهُ؟ ونعـرف أنّـه ... بَوْحُ الحيـاة، وزهوهـا المتمـرّد
لكنّه مهما استطال يظلُ في ... حَصَـرٍ، أمـام شموخـه يتنهّـد
يا أمةَ القرآن أمسُكِ مُخصبٌ ... بوَريفِ ما أعطى ويومك أربَدُ
مـا بالُـكِ اسـتدبرتِهِ وتركتِـهِ ... يختـالُ بـين بنيـه وهـو مصفَّدُ
يُلقيـه في حلَـكِ القلـوب تـبرّكٌ ... ويذيبُـهُ بـين الشـفاه تَعـوُّدُ
ويكـاد يستجدي الهدى من فتيـةٍ ... لولا توهُّجُ نـوره لـم يهتدوا

والأبيات التالية تقف عند السيرة والشريعة وما شهده التاريخ الإسـلامي مـن عـدل، ومسـاواة، وانتشـار علـم، وأفـول الأصـنام البشـرية، وظهـور النمـاذج الإنسـانية الـذين أسـرجوا (أضـاؤوا) الـدنيا، فسـرى النـور مـن يثـرب (المدينـة المنـورة) إلى طاشـقند (في ماوراء النهر)، وإذا نحن – بدلاً من أن نستلهم هذا الماضي – رُحنا نشرّق ونغرّب في ليل مظلم، ولم نجن من ذلك سوى الحيرة. يقول:

يـا أمـةً بهـرَ الخلـودُ لـداتِها ... فيمـا أقـامَ بهـا البنـاةُ وشـيّدوا
وتـأنَّقَ التـاريخُ في خُطواتـهِ ... يجلـو بهـا مـا شـرَّعوه وقعَّـدوا:
العـدلُ أسٌّ.. والعلـومُ فريضـةٌ ... والحُكمُ شورى.. والسياسة سؤدَدُ

والنـاسُ عنـد ولاتهـا وقضـاتها ... شَـرَعٌ.. سَـواءٌ عبـدُهم والسـيدُ
والأرضُ أرض الله لا (كسرى) بها ... يهب الحيـاةَ، ولا (هِرَقْلٌ) يُسـعِد
و(محمـدٌ) عـرْشُ الممالـكِ دونَـهُ ... قدرًا، على خَشِنِ الحَصِيرة يرقدُ
و(عليٌّ) ذو الثوبين يكسو (قمبرًا) ... أغلاهمـا ولـه الـرخيصُ الأجـرَد
و(الراشـدونَ)، خلائفًـا وأئمـةً، ... مـا بـين أقـدام الرَعيّـة أعبُـدُ
حتى إذا فتحوا الفتوحَ، وأسرجوا الـ ... ـدنيا، فضاءَ بها الزمانُ الأسود
وزهـت بـوهج ذُبالـة في (يثـرب) ... غـرفٌ بـأعلا (طاشَـقَنْدٍ) هُجَّـد
ألفيتنـا يحـدو طلائـعَ ركبنـا ... تَيْـهٌ، ويَغمـرُهنّ ليـلٌ سـرمدُ
وتشعَّبت طرقُ الـمَتيه: فشرَّق الـ ... ـأعمـى.. وغـرَّب في دجـاه الأرمـد
يا أمـة الإسـلام وقفـة حائر ... تَزِنِيْنَ فيهـا: ما يريـحُ.. ويجهدُ

وفي التفاتة رائعة يدعو الأمة إلى العودة الحضارية بذهنية منفتحة، غير مقيّدة بالمذهبية والطائفية. ومهما تعددت المذاهب فالمسير واحد. واختلاف النظر يصقل العقول، بينما العقل المنفرد يصدأ. وتعدّد منائر الهداية ليس فيه خوف، بل الخوف أن يبني فريق بحطام آخر، أي أن يبني نفسه على حساب هدم الفريق الآخر.

والخوف من مداهنة العدوّ، والخوف من استيقاظ العنصرية والطائفية. ويقف عند الطائفية واصفًا إياها بأنها أسوأ ما سعى الأعداء فينا، وأن رمز الطائفية (وربما يقصد بريطانيا) أصبح قبلة للطائفيين. وأنه راح يغمز في أحساب أتباع أهل البيت واصفًا

إياهم بأنهم من الفرس أو من الهند. يقول:

عودي لأمسك تركبي طرق الهدى ... فالأرض سهلٌ، والركائبُ حُشَّد
وأمام عينك حاضر متقدّمٌ ... فيه من الرَشَدِ الوفيرُ الأجوَد
فتخيّري ما تشتهين، وجدّدي ... هِمَما تكادُ من التغرّبِ تهمُدُ
وتعدّدي طرقًا فلا توهي السُرى ... سَعَةُ (المذاهبِ) والمدى متوحّد
فالرأي تصقُلُهُ العقولُ، تخالفت ... نظرًا، وقد يُصديه عقلٌ مُفرَد
والخوف ليس بأن نكون منائرًا ... شتّى، تضيءُ لنا السبيلَ وتُرشدُ
الخوفُ أن يبنى فريق مسلم ... بحطام آخر، مثلهُ، يَتبدَّد!
والخوفُ من لقيا عدوّك شاهرًا ... لأخيكَ صارمَ حِقده فتُمجِّد!!
والخوفُ أنّ (العنصرية) هوَّمت ... زمنًا.. فأيقظها الدمُ المستورَدُ
والخوفُ أنّ (الطائفيّةَ) تَبتني ... أعشَاشها بين العقول فتَجمَدُ
ونطيرُ أسرابًا نرفرفُ حولَها ... ونعبُّ فضلَ دمائنا.. ونغرّدُ
يا قومُ حسبُكم التفرّقُ في المدى ... فالليلُ طاغٍ، والضَياعُ معربدُ
والطائفيّةُ – وهي أسوءُ ما سعى ... اعداؤكم فيه – تُصانُ وتُعضَدُ
ويكاد (رَمزُ الطائفية) – وهو من ... تدرون بغضًا للتديّن – يُعبدُ
ما انفكّ يَلمز من دُرى أحسابنا ... حَنَقًا، فـ (يُعجمنا) لكم أو (يُهنِدُ)

وتثور في نفس الشاعر عزّة الانتماء العربي إلى موطنه، فدمه يتفصّد (يتفجّر) مما به من دم العرب الأصائل (دارم ومجاشع)، وروحه تغمرها حضارة الإسلام، وهو من أبناء الفتوح والمقاومة.. من القادسية (الفتح الإسلامي لإيران) حتى الشعيبة (مقارعة البريطانيين).

ولماذا يُعامل أتباع أهل البيت هذه المعاملة الطائفية. لقد قامت الدنيا ولم تقعد بسبب زعم محرقة اليهود، فلماذا السكوت أمام هدم مثوى أئمة أهل البيت، ولماذا تركتم إسرائيل تعيث في الأرض فسادًا، واتجهتم إلى كربلاء والنجف لتدميرهما؟! (يشير إلى ما فعله نظام صدام بالمدينتين في إطار إثارة أحقاد طائفية). يقول:

نحن العراق شموخُهُ وإباؤهُ ... وكريم ما أعطى بنوهُ وأنجدوا
عُرُبٌ تكاد عروقُنا – مما بها ... من (دارمٍ) و(مجاشعٍ) . تتفصَّدُ
وجرى بنا الإسلام سَيلَ حضارةٍ ... وتمدّنٍ، يُرغي هُداه ويُزبدُ
وامتدَّ وهجُ (القادسيّة) من دما ... آبائنا.. حتى (الشُعَيبة) يَشهد
أتكونُ محنتُنا؛ لأنّ قلوبنا ... من نبع آل محمد تتزوّدُ؟!
ويكون عذر بني أبينا أنّهم ... خُدعوا ببارق ما يقولُ فأرعدوا؟
هَبْكمْ صَدَقْتُم ما تَطلّعَ فيه من ... حَرقِ اليهود منافقٌ متهوّد
أفتسكتون، وقد أحال خرائبًا ... مثوى الأئمة، جيشهُ المستأسد
حتى كأنّ بكربلاءٍ (حائطَالمبكى) ... وفي النجف (الكِنيسِتُ) يُعقَدُ!!

ويعود في الخاتمة إلى ذكرياته مع النجف، وظمئه وحنينه إليها وهو في الغربة. وكيف أن المدينة ربّته وأنارت روحه وروّت دوحته حتى أثمرت، وعبرت به مرحلة الكهولة حتى إذا جاوز الستين باخ (انطفأ) موقده، وابتعد عنها، ولم تبق له سوى الذكريات.

ويبثّ آلامَه أن يرى رملة النجف فرية للوحوش، ويختم قصيدته بقوله: إن المغرورين القتلة لا يستطيعون أن يهدموا عقيدة،

فسيوفهم مغمدة غير فاعلة عند أم المعارك (أي حينما يحمى الوطيس) يقول:

حتى إذا (الستّون) أثقل جذعَها ... ثلجُ الشتاء، وباخَ ذاك المَوقدُ

ألفيتُني وملابُ رملك في مدى ... عينيَّ من زهر الكواكب أبعدُ

ووجدتُني أنأى، وأحمل في دمي ... من ذكرياتك ما به أتجلّدُ

أعزز عليّ بأن أراكِ فريسةً ... لنيوب وحشٍ لم يزل يترصّد

يعميه أنّك للعراق منارةٌ ... ولشعبه عند الشدائد مُنجد

وبأنّ حمراء القِباب تُزينُها ... لهم، دماء سَراتها، لا العسجد

فطغى ليغسل فيكِ عارَ هزيمةٍ ... ألقاهُ فيها مَنْ بهم يتمرّدُ

كذبَ الغرور، فلن يهدَّ (عقيدةً) ... سيفٌ لدى (أم المعارك) مُغْمَدُ

التقريب في القرن الماضي

□

• عالمنا المعاصر يرث أعباء انحرافات التاريخ الإسلامي كلها • نهضة السيد جمال الدين قامت على أساس تجاوز الموروث الطائفي • مصالح السيطرة والهيمنة والحكم استغلت هذا الموروث الطائفي.

أعلن الإسلام مبادئه على قاعدة: «لا إله إلا الله»، لرفض كل الآلهة المزيفة المتعملقة على طريق تكامل المسيرة البشرية، وليحرر الإنسان من الأغلال التي تعيق حركته نحو الله؛ أي نحو كل المثل العليا التي خُلق الإنسان من أجل تحقيقها، وليزيل عن النفس الإنسانية العوامل التي تدفع إلى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ولتفتح أمامه آفاق قدرة الله، وتدعوه إلى ممارسة دور الاستخلاف في استثمار هذه القدرة، لخلق حياة أفضل لبني الإنسان.

ولقد سجّل الإسلام ـ ولايزال يسجل ـ فصولاً رائعة في تاريخ تحرير الإنسان وتزكيته ودفعه على طريق العلم والعمران ونشر العدل ومقارعة الظالمين.

غير أن أتباعه ـ مثل أتباع كل المدارس السماوية والوضعية ـ منهم من يرتفع إلى مستوى أهداف الرسالة، ومنهم من يعيش ذاتياته محاولا تسخير الرسالة لصالح الذات.

المجموعة الأولى تشمل عادة القادة الرساليين والمصلحين المخلصين والمؤمنين المتدينين المتقين من عامة الناس.

والمجموعة الثانية يمثلها غالبًا الحكام الحريصون على الحكم، وكل المتكالبين على متاع الدنيا من وعاظ السلاطين وأصحاب الدكاكين، وجميع الذين يحملون ذاتيات مستفحلة لا يمكن أن تذوب في الأهداف الرسالية، بل يريدون إذابة الرسالة في ذواتهم المتورمة.

الفتن الطائفية في العالم الإسلامي على مر التاريخ مردّها إلى المجموعة الثانية، وإن كانت هذه المجموعة تتخذ أحيانًا من عامة المؤمنين وقودًا لمعركتها بعد أن تظللها بالشعارات الدينية الرسالية.

عالمنا المعاصر يرث أعباء كل انحرافات التاريخ الإسلامي المستمدة عادة من ذاتيات الساقطين في فتنة السلطان والمال والجاه، وإذا تجاوزنا تاريخ صدر الإسلام، والعصر الأموي والعباسي، وما آل إليه من سقوط على يد المغول؛ نتيجة عوامل الضعف التي نخرت فيه، وأهمها التجزئة الاجتماعية: طائفية أو قومية أو طبقية، نلاحظ أن التفرقة الطائفية كانت من محاور ممارسة الحكام في القرون الأخيرة، وهي ممارسات تلقي بثقلها أكثر من غيرها على كاهل أمتنا في العصر الحديث.

لو عدنا إلى الوراء، وبدأنا من القرن العاشر الهجري لشاهدنا فصلاً مهمًا من فصول النزاع السني ـ الشيعي في عالمنا الإسلامي،

أشعلت نيرانه مصالح الحكم وغذته الحروب بين الدولة الصفوية والعثمانية.

فمنذ أن دخل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م، ونشب الصراع الصفوي العثماني، تحول العراق إلى ساحة للصراع الطائفي، بل امتدت هذه الساحة لتشمل إيران والعالم العربي، ومنذ ذلك الوقت بدأ التدخل الأوروبي في المنطقة عن طريق الدعم العسكري لهذا الجانب أو ذاك، ولايزال ذلك الصراع الطائفي وما خلفه من ثقافة شعبية وأدبيات التراشق يشكل الأرضية لكل استفزاز طائفي في مجتمعاتنا الإسلامية.

وإلى جانب الصراع العثماني ـ الصفوي ظهرت أحداث غذت الطائفية، منها تحرّك الأفغان باسم السنة للقضاء على الدولة الصفوية الشيعية. فقد هجم زعيم أحد القبائل الأفغانية «مير محمود» في بدايات القرن الثامن عشر الميلادي على أصفهان عاصمة الصفويين وأقام مجزرة رهيبة تقشعر منها الأبدان، وبدأ هذا الأفغاني بمنافسة حادة مع السلطان العثماني رغم أنهما سنيّان. ولم يمكث الأفغان في إيران طويلا إذ ظهر نادر شاه الأفشاري من قبائل الأفشار التركمانية، فطرد الأفغان وهزم العثمانيين من الأراضي الإيرانية وحاصر مدينة بغداد مرتين، ومدّ فتوحاته شرقًا إلى أواسط آسيا والهند.

ويهمنا الموقف المذهبي لنادر شاه، فهو تقرّب من السنة والشيعة، وطرح مشروع التقريب بينهما، ولكنه واجه رفضًا من

العثمانيين، ويلاحظ أن مشروع التقريب هذا رغم ماشابه من مصالح الحكم وجهل الحاكم، قد نجح إلى حد كبير في جمع علماء السنة والشيعة لأول مرة في التاريخ على وثيقة تقريبية مشتركة تركز أسس التفاهم المذهبي بينهما.

وبقي العثمانيون يتمترسون وراء نصرة السنة ومحاربة الشيعة، وظل مشروع التقريب لنادر شاه يتسع ليشهد صلوات جماعة مشتركة بين الطائفتين، وأوشك المشروع أن يعم العالم الإسلامي لولا اغتيال نادر شاه، فظهرت المخلفات الطائفية مرة أخرى على السطح، وتواصلت الفتن والاضطرابات حتى استولت الأسرة القاجارية في إيران على الحكم عام ١٣١١هـ / ١٨٩٣م.

وفي ظل هذه الأسرة اشتعلت الصراعات الطائفية مرة أخرى. وفي هذا العصر بالذات، ظهرت حركة تكفّر من تسميهم «أهل البدع» من السنة والشيعة. وأدت إلى انقسام أهل السنة بين مؤيد لها ومعارض ، كما أدت إلى إثارة زوبعة من التكفير ضد الشيعة. وفي عام ١٨٠٢م دخل هؤلاء التكفيريون مدينة كربلاء، فقتلوا الآلاف ونهبوا وسلبوا، واعتدوا على مراقد أئمة أهل البيت، وكان ذلك عاملاً في تعميق النزاع الطائفي، ثم هجموا سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م على البصرة والزبير وهدموا مافيها من مراقد، وهجموا مرة ثالثة سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م على النجف؛ وكل ذلك أدى إلى استثارة طائفية شعبية عامة.

مشروع محمد علي باشا الإصلاحي واجه أول ماواجه المشكلة

الطائفية؛ لذلك انشغل في حروب مع الوهابية، كما بذل جهودًا كبيرة للتقرب من السنة وكسب الشيعة إلى صفه، وواصل إبراهيم باشا هذه المساعي، لكنه واجه فتنًا طائفية هوجاء اشترك فيها السنة والشيعة إضافة إلى الدروز والمسيحيين والأرمن، وكان للتدخل الأجنبي إضافة إلى الموروث الطائفي أثر في هذه الفتن الطائفية.

وازداد نشاط الأوربيين للتغلغل في العالم الإسلامي، وتداعت الدولة العثمانية وأشرفت على السقوط، وانهزمت الدولة القاجارية أمام الروس واقتطعت أراضيها في معاهدتي «گلستان» و«تركمن چاي» واستشرى الفساد في العالم الإسلامي، ونشطت حركة الدروشة والخرافات، وتوفرت كلّ الظروف للسقوط.

في هذه الظروف نهض السيد جمال الدين المعروف بالأفغاني (١٢٥٥ – ١٣١٥هـ / ١٨٣٩ – ١٨٩٧م) للدعوة إلى «الجامعة الإسلامية». وهي بداية عصر الدعوة الإحيائية التي حاولت الجمع بين أصالة الإسلام ومبادئه وبين مواكبة العصر، وقامت على أساس تجاوز الحساسيات الطائفية، والعودة إلى جوهر الإسلام، وصيانة وحدة الأمة الإسلامية من عوامل التجزئة والتخلف.

بدأ دعوته في إيران فلم يسمح له الموروث الطائفي والبطش السياسي أن يواصل دعوته، فما وجد في العالم الإسلامي أفضل من «مصر»؛ ليتخذها قاعدة للدعوة إلى «الجامعة الإسلامية» ويظهر أن مصر بعد غزو نابليون بدأت تتحسس الخطر على هويتها وشخصيتها الإسلامية، وبدأت هذه المشاعر تنمو ولكن

ببطء وبدون إطار ودون أن تنتظم في مشروع إحيائي، فوجدت في دعوة السيد جمال الدين ضالتها، ولذلك كان الالتفاف حول دعوة السيد سريعًا ومدهشًا.

كانت دعوة جمال الدين مشروعًا نهضويًا مستكملاً إلى حد كبير لشروط الانتماء الثقافي وشروط الخطاب المعاصر، وأوشك أن يدفع بمصر وبسائر العالم العربي والإسلامي إلى نهضة شاملة، لولا أن الأوروبيين، وخاصة الإنجليز، كانوا قد تغلغلوا في جسد الأمة عن طريق التنظيم الماسوني وعن طريق الإرساليات التبشيرية والمدارس والاستشراق وإشاعة روح الهزيمة؛ فوفروا الظروف لتدخلهم العسكري بعد ثورة عرابي باشا، وأحبطوا مشروع النهضة تمامًا.

ترافق هذا الضعف في العالم الإسلامي مع ظهور المشروع القومي في تركيا وإيران والعالم العربي، واقترن هذا المشروع بالعلمانية، ونجح في تركيا في إحياء الطورانية وخلق تيار معاد للإسلام وللعرب وللغة العربية على يد أتاتورك. وأوشك أن يحقق نفس النجاح على يد رضاخان الذي قضى على الحكم القاجاري وأعلن نفسه شاه إيران، مؤسسًا بذلك الحكم البهلوي، ولكنه أخفق؛ بسبب معارضة التيار الديني.

والعالم العربي سقط بيد الاستعمار الأوروبي بالتدريج، ونفذ وعد بلفور بتأسيس إسرائيل، وكان من المفروض أن ينبثق نوع من التضامن الإسلامي أمام الهجوم الأوروبي والصهيوني العسكري والسياسي والثقافي، وظهر شيء من ذلك على مستوى بسيط،

لكن عوامل التجزئة الطائفية ثم القومية حالت دون ذلك، ورغم ماحققته حركات التحرر من استقلال نسبي للعالم الإسلامي، لكنها بقيت تعيش الموروث الطائفي، وظلت مصالح السيطرة والهيمنة والحكم تستغل هذا الموروث؛ لتشعل النزاع الطائفي السني ـ الشيعي في الظروف اللازمة.

الموروث من القرون الأربعة السابقة على القرن العشرين ـ على الأقل ـ يتمثل في المحاور التالية:

ـ الصراع بين السنة والشيعة على المحور الإيراني – التركي، وتشمل الدائرة التركية كل العالم العربي الذي خضع لسياسة الدولة العثمانية.

ـ الصراع السني الشيعي على المحور الأفغاني – الإيراني الموروث عبر هجوم الأفغان السنة على إيران الصفوية، ثم اندحارهم على يد نادر شاه.

ـ الحركة الوهابية القائمة على أساس السلفية، وما أفرزته من جو سلفي في العالم الإسلامي يرفض كثيرًا مما يعتقد به أهل السنة والشيعة.

ـ النزاع المذهبي بين أهل السنة نتيجة القطيعة الفقهية بين المذاهب الأربعة.

وأما الموروث التقريبي فيتمثل في المحاور التالية:

ـ اتجاه مصر المبكر إلى دعوة الأمة الإسلامية للوحدة.

ـ اتجاه الحوزات العلمية في إيران والنجف إلى فكرة التقريب استنادًا إلى مفاهيم تحملها من مدرسة أهل البيت.

المثقفون والبحث عن الدور

زكي الميلاد*

- المثقف في العالم العربي يمثل فعل الغائب والجامد والساكن
- لا يكفي من المثقف أن يحسن الكلام فقط ويجيد الجدل
- الصورة المتداولة عن المثقف العربي أنه سهل الإغراء والإغواء
- المثقف بحاجة إلى الإرادة والشجاعة والضمير الحي.

١ -المثقف اسم حاضر وفعل غائب

لقد وجدت أن ألمع صورة للمثقف، هي تلك التي حاول تشكيلها إدوارد سعيد في كتابه البليغ *صور المثقف*، ولعله أكثر كتاب يحرج المثقف العربي، وينتقص من قدره، ويعيب عليه رؤيته لذاته ودوره، لأنه قد لا يجد نفسه متمثلاً في الصورة التي حاول إدوارد سعيد الدفاع عنها، والتبشير بها وحمايتها، والإعلاء من شأنها، وفي تأكيد تلك النزعة الأخلاقية الشفافة، والروح النقدية الشجاعة، والتغلب على إغراءات السلطة والثروة والجاه.

ومن ملاح هذه الصورة يقول إدوارد سعيد: «لا شيء في نظري يستحق التوبيخ أكثر من تلك الطباع الذهنية للمثقف، التي تغري

* - باحث ومفكر من المملكة العربية السعودية رئيس تحرير مجلة «الكلمة».

بتجنب المخاطر، أي الابتعاد عن موقف صعب ومبدئي تدرك أنه الصحيح، ولكنك تقرر ألا تتخذه . وأنت ـ والكلام لسعيد ـ لا تريد الظهور في مظهر المنغمس جدًا في السياسة، وتخشى من أن تبدو مولعًا بالجدل، وتحتاج إلى موافقة مدير أو شخص ذي سلطة، وتريد الاحتفاظ بسمعة حسنة كإنسان متزن وموضوعي ومعتدل، وتأمل أن تدعى مرة أخرى وتستشار، وتكون عضوًا في مجلس إدارة أو لجنة لها مقامها، وبالتالي أن تظل في طاق الاتجاه السائد الذي يعول عليه، وتأمل يومًا أن تحصل على شهادة مغرية، أو غنيمة كبرى، لا بل حتى على منصب سفير.

إن هذه الطباع الذهنية كما يضيف سعيد، هي العامل الأبرز دون منازع لإفساد المثقف، وإذا كان في وسع أي شيء أن يمسخ حياة فكرية متقدة، ويقضي على تأثيرها، وفي نهاية الأمر يقتلها، فلسوف يكون دمج مثل هذه الطباع وترسيخها في النفس». إلى هنا وينتهي كلام إدوارد سعيد.

لذلك فإن المثقف في العالم العربي يمثل فعل الغائب والجامد والساكن، وليس فعل الحاضر والفاعل والمتحرك، وأكثر ما تتجلى لنا هذه الصورة في ظروف الأزمات، ولا نلتفت إليها إلا في حالات المحن، وإذا حلّت بنا الكوارث، واشتدت علينا المخاطر.

والمفارقة اللافتة أن المثقف هو أكثر من يدرك هذه الحقيقة، وأكثر من يتحدث عنها أيضًا، ولا يجادل فيها، أو يطالب بالتثبت منها والاستدلال عليها، فهو الذي يحسن التعبير عنها بكلامه

البليغ والفصيح والبديع. لكنه لا يستطيع أن يغيّر تلك الصورة ويبرهن على ما يغايرها أو يعاكسها، وهذا من أكثر ما يدعو إلى الحيرة والتساؤل.

فما جدوى أن يكون المرء مثقفًا؟ كما يتساءل المفكر الفرنسي روجيس دوبريه، ولعل هذا السؤال هو من أبلغ الأسئلة التي تحرض على على أن يواجه المثقف ذاته، ويرتد إلى أعماقه الداخلية لكي يحاور نفسه ويحاسبها، على أمل أن يستلهم قوة معنوية تدفع به نحو تغيير مسلكياته ومساراته، وتخرجه من عامله الغائب والجامد إلى عالم الحاضر والفاعل. من عالم الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾، إلى عالم الذين قال عنهم: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وبعد أن حذرهم بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾.

فلا يكفي من المثقف أن يحسن الكلام ويكون أكثر شيء جدلاً، بل عليه أن يصدق كلامه بالعمل، لكي يكون ملتزمًا بقيمه وأخلاقياته، وصادقًا مع نفسه ووطنه وأمته.

ومن أشد ما يرسّخ هذه الصورة المنقوصة عن المثقف، تلك الذاكرة التاريخية، والسيرة العملية المتشكلة عن المثقفين في العالم العربي، وهي الذاكرة التي تقوم بنقل الصورة وتعميمها من جيل إلى جيل آخر، ومن زمن إلى زمن آخر. كما أنها السيرة التي

تشكل التقاليد وترسخها، وتحولها إلى قوة ضاغطة، تدفع المثقف لأن يكيف سلوكه بطريقة يتناغم فيها مع تلك التقاليد، والتقيد بها في أكثر الأحيان. فليس معروفًا عن المثقفين العرب الشجاعة والجرأة والمغامرة، وسِجِل الكثير منهم لا يحفل بتاريخ من البطولات والتضحيات والمواقف الباسلة والصامدة، ومن يحمل مثل هذه الصورة وهذه الذاكرة هم فئات قليلة.

والصورة المتداولة عن المثقف العربي أنه سهل الإغراء والإغواء، ولا يمتلك تلك الممانعة الصلبة أمام إغراءات السلطة والقوة، أو إغواءات المال والجاه. وهذه الإغراءات والإغواءات هي من أكثر عوامل إفساد المثقفين، ومن أسهل ما يمارس عليهم، لتحطيم رمزيتهم الأخلاقية، وسلب شجاعتهم النقدية، وتوهين إرادتهم، وتحويلهم إلى أشخاص صامتين لا يجرأون على قول الحق، والدفاع عن الفضيلة، والاصطفاف مع الأمة في آمالها وآلامها.

في منتصف مارس/ آذار ٢٠٠٣م، تناقلت وكالات الأنباء خبر مقتل الناشطة الأمريكية راشيل صوريا كوري، ٢٣ عامًا، وهي من فريق التضامن مع الشعب الفلسطيني عندما حاولت صدّ جرّافة عسكرية إسرائيلية، جاءت لتجرف أراضيَ في حي السلام برفح جنوب قطاع غزة، لكن الجرافة دفنتها ودهستها، مما أدى إلى مقتلها بعد ما تحطمت جمجمتها وأطرافها.

لا شك أن هذا الموقف الشريف والشجاع، سوف يتحول إلى ذاكرة خالدة، يمثل رمزًا للشرف والفداء، والدفاع عن الإنسان

والأرض والحق والعدل، في ذاكرة الشعب الفلسطيني، وذاكرة كل أحرار العالم. ألا يحرج هذا الموقف المثقف العربي؟ وهل لديه الشجاعة والمغامرة في أن يضع نفسه في مثل ذلك الموقف؟.

وفي الوقت الذي تشتد فيه على الأمة المخاطر والتحديات، يطرح السؤال: أين هو دور المثقف؟ ولا شك أن المثقف يدرك الجواب ويفهمه جيدًا، وليس هو بحاجة إلى من يعلّمه مثل هذا الجواب، لكنه بحاجة إلى الإرادة الشجاعة والضمير الحي، لكي يتحول من فعل الغائب إلى فعل الحاضر. ولكي يتعامل مع هذه اللحظة التاريخية، بدور تاريخي، يستجيب لمقتضيات تلك اللحظة، ويرتقي إلى مستوى تحدياتها وشرائطها.

* * *

٢ -هل المثقف بحاجة إلى دور؟

لقد أسرفت الأدبيات العربية في الحديث عن دور المثقف، وتحولت إلى مقولة لا يتوقف الكلام فيها وعنها، وبطريقة مملة في أغلب الأحيان، ويغلب عليها التكرار والاجترار والطابع التقليدي، ويكثر فيها الإنشاء، ويقل فيها الإبداع.

وقد ظل الحديث يتردد حول هذه المقولة بصيغ ظاهرها مختلف لكن جوهرها واحد، فتارة يجري الحديث عن هذه المقولة بصيغة: ما هو دور المثقف في هذه المرحلة؟ أو في هذا العصر؟ أو أمام الأحداث الجارية، أو القضايا المطروحة؟ وتارة بصيغة: ما هو

دور المثقف تجاه هذه النكبة أو تلك، أو تجاه هذه المحنة أو تلك، أو تجاه هذا الموضوع أو ذاك؟ إلى آخر القائمة التي ليست لها نهاية.

فما هو تفسير التمسك بهذه المقولة والحديث المتكرر عنها؟ فهل المثقف جاهل بهذا الدور وبحاجة لمن يذكّره ويبصّره به، ويلفت نظره إليه؟ أم إنه يحاول أن يجد ذاته ومجده وعظمته في الحديث المتزايد عن ذلك الدور، والذي يصور المثقف من خلاله أهمية وقيمة دوره، والحاجة الملحة والأساسية لهذا الدور، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه في أي وقت، وفي أي عصر ومرحلة، وأمام أي حدث أو قضية مهما كان نوعها وحجمها، وهو الحديث الذي يستجيب لرغبته وطباعه وخياله النفسي والذهني والوجودي!

أم إن المثقف حين يتمسك بالحديث عن دوره، إنما يريد تجديد هذا الدور وتطويره وتحريكه والإضافة عليه، وتكييفه مع الأحوال والأزمنة المتغيرة والمتبدلة، وأمام القضايا والموضوعات المتجددة، وبقصد أن لا يصل هذا الدور إلى وضع جامد أو ساكن أو ثابت لا يقبل الحركة والمرونة والتغير، أو أن لا يصل إلى نهايته والاكتفاء منه وعدم الحاجة إليه.

أم لأن المثقف لا يتمسك بهذا الدور، ولا يبقى محافظًا عليه، وإنما قد يتخلى عنه بإرادته أو بدون إرادته، لهذا فهو بحاجة دائمة للحديث عن دوره، لكي لا يتخلى أو يتوقف عنه؟.

هذه تأويلات متعددة ومتباينة، قد تفسّر لنا علاقة المثقف بالحديث الذي لا ينقطع عن طبيعة دوره.

ولا أريد أن أنتصر إلى تأويل معين، لأن جميع هذه التأويلات ممكنة، ولها أساس في الواقع الموضوعي، باعتبار أن المثقفين تتعدد وتختلف أنماطهم وطباعهم وطبيعة شخصياتهم.

لهذا فقد ظل المثقفون يتعرضون إلى تساؤلات حرجة للغاية، تحاول أن تشكك في دورهم، أو تستثيرهم وتحرك فيهم نزعة النقد.

فهناك من يتساءل: هل مازال المثقفون يصلحون لشيء؟ وهناك من يتساءل على طريقة سؤال المفكر الفرنسي روجيس دوبريه: ما جدوى أن يكون المرء مثقفًا؟، وفي هذا النطاق أيضًا، جاءت مقولة موت المثقف أو نهاية المثقف، إلى غير ذلك من تساؤلات ومقولات.

مع ذلك فلست من دعاة أو يتخلى المثقف عن دوره، ويكون بلا دور. وهناك من يغلّب الدور الذي يتصل بالمعرفة، وهناك من يغلّب الدور الذي يتصل بالمجتمع، وهنا من يغلّب الدور الذي يتصل بالمجتمع، وهناك من يغلّب الدور الذي يتصل بشأن آخر غير المعرفة والمجتمع. فالمهم أن يكون للمثقف دور، وهو قادر على أن يتعرف على هذا الدور، ويلتزم به إذا كانت هذه إرادته.

* * *

٣ -المثقف والسلطة والنقد

ماذا يعني تجسير الفجوة بين المثقف والسلطة؟ هل هو البحث عن منطقة وسطى بينهما؟ أم هو فضّ الاشتباك الجدلي

والتاريخي، والبحث عن إمكانية التوافق أو التصالح بينهما؟ وكيف يفهم المثقف هذه المعادلة المتحركة؟ وهو الذي له طبيعة التفلت من السلطة بكافة صورها وأنماطها وأشكالها.

والسلطة هنا هي بالمفهوم الاجتماعي العام، وليس بالمفهوم السياسي الخاص، وكون المثقف لا ينحاز إلا لسلطة المعرفة والنقد، وحتى في هذه الحالة يكون حذرًا في وصف هذا الانحياز بمعنى ومفهوم السلطة، ويعتبر أن النقد لا يأتلف مع السلطة، ولا يتناغم معها.

ومن جهة أخرى، ماذا تعني هذه المعادلة في منطق السلطة؟ وهي التي لها طبيعة التعالي والإحساس بالقوة، ولا تظهر حالها إلا بصورة الهيبة والشوكة، فهل يقبل منطق السلطة هذا القدر من تجسير الفجوة مع المثقف؟ أم أن ذلك المنطق لا يقنع إلا بالخضوع والاستسلام، والركون إلى الصمت؟.

إذا رجعنا إلى الأدبيات العربية المعاصرة، وجدنا أن طبيعة التصورات المتشكلة فيها حول العلاقة بين المثقف والسلطة، لا تدفع باتجاه تجسير الفجوة بينهما، لأنها ظلت تركز على إظهار المفارقة والمغايرة، وتنتقد سلوك المطابقة والمعانقة.

والقاعدة عندها أن المفارقة هي الأصل، والمعانقة هي الاستثناء. وهي تربط بين المفارقة وقدرة المثقف على على أداء دوره ووظائفه النقدية والاجتماعية والسياسية، وتنعدم هذه القدرة أو تتقلص في حالة المعانقة. خصوصًا مع تركيز هذه الأدبيات على التلازم بين

المثقف والنقد، وأن المثقف لا يكون إلا ناقدًا، والنقد هو المكوّن لهوية المثقف.

ولعل إدوارد سعيد هو أكثر من يدافع عن مثل هذه الرؤية لصورة المثقف، حيث يرى أن أصعب عمل تقوم به كمثقف هو أن تكون ناقدًا، لأن المثقف حسب رأيه لا هو عنصر تهدئة، ولا هو خالق إجماع، وإنما هو إنسان يراهن بكينونته كلها على حس نقدي، على الإحساس بأنه على غير استعداد للقبول بالصيغ السهلة، أو الأفكار المبتذلة الجاهزة، أو التأكيدات المتملقة والدائمة المجاملة. وولاء المثقف لأي مجموعة بشرية، ثقافية أم سياسية أم اقتصادية، لا يجوز كما يضيف سعيد، أن يجرّ المثقف إلى درجة تخدير الحس النقدي، أو تقليص ضروراته الأساسية.

لذلك فبالمفارقة يستطيع المثقف أن يحتمي ويتقوى ويحافظ على نزعته النقدية، وهي النزعة التي قد تتلاشى أو تضمحل أو حتى تتقلص في حالة المعانقة.

فهل بإمكان المثقف أن يحتفظ بنزعته النقدية في حالة تجسير الفجوة مع السلطة؟ وهل تسمح السلطة في أن يحتفظ المثقف بتلك النزعة النقدية في مثل هذه الحالة؟

موقف أئمة المسلمين
من التكفير

د. رأفت محمد رشيد ميقاتي*

• أقوال الأئمة والفقهاء تجمع على أن التكفير حكم شرعي
• ابن تيمية: ليس لأحد أن يكفّر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ أو غلط • التكفير له ضوابط كثيرة وله شروط كما له موانع.

التكفير مسألة ضلَّت فيها كثير من الأفهام وزلّت فيها كثير من الأقلام والأقدام ولقد علَّمنا القرآن الكريم التبيُّن في نفي الإيمان عن مطلق شخص قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وقد أردنا في بحثنا هذا بيان حقيقة الكفر (المطلب الأول) ثم تبيان أن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن (المطلب الثاني) ثم بيان حال المتأوّل ومدى تكفيره، ورد العلماء للتكفير بالمآل

* - مساعد الأمين العام في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة طرابلس

(المطلب الثالث) ثم بيان المراد من الاتفاق على أنه لا يكفر أحدٌ من أهل القبلة (المطلب الرابع) وختمنا بذكر أهم المسائل التي دلّ الكتاب الكريم والسنة المطهرة على أنها كفر مع التحذير من التكفير بغير دليل شرعي ولا علم (المطلب الخامس).

وقد حرصنا على استقراء النصوص التي أوردها الأئمة الأعلام وتوثيقها تناسبًا مع عنوان البحث دون التوسع في التعليق عليها لوضوحها وشمولها، كما تعمدنا إيرادها مستقلة عن بعضها صونًا لها عن التبديل والتحوير والاستنتاجات الخاصة، وتجنبنا تكرار ما يورده الفقهاء عادة في باب الردَّة.

المطلب الأول: في بيان حقيقة الكفر ومدركه:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: «الكفر حكم شرعي كالرق والحرية مثلاً، إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود في النار، ومدركه شرعي فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص» (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ١٢٨، ص ١٤٦، ص ١٥٨).

وعند شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكفر حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة، والعقل قد يُعلم به صواب القول وخطؤه، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفرًا في الشرع، كما أنه ليس كل ما كان صوابًا في العقل تجب في الشرع معرفته (درء التعارض ٢٤٢/١ مختصر الصواعق المرسلة ٤٢١/٢ والصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص ٧٨).

«فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفِّرهم، لأن الكفر حكم شرعي، فليس للانسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك، وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه ولا تزني بأهله، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى وكذلك التكفير حق الله فلا يُكَفَّر إلا من كفَّره الله ورسوله» (منهاج السنة ٥/٢٤٤).

ويقول ابن الوزير رحمه الله تعالى (إمام من مجتهدي اليمن، توفي عام ٨٤٠ هـ) «إن التكفير سمعي محض لا مدخل للعقل فيه، وأن الدليل على الكفر لا يكون إلا سمعيًا قطعيًا، ولا نزاع في ذلك» (العواصم والقواصم ٤/١٧٨ -١٧٩).

ويعرِّف الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى الكفر بعبارة جامعة فيقول:

«هو في الدين صفة من جحد شيئًا مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معًا، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الايمان» (الأحكام ١/٤٥ الفصل ٣/٢٥٢ والمحلَّى ١٣/٤٣٧).

وعند السبكي الشافعي رحمه الله تعالى (٧٢٧هـ): «التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية أو الوحدانية أو الرسالة أو قول أو فعل حَكَم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدًا» (فتاوى السبكي ٢/٥٨٦).

وكذا عند الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «الكفر جَحْدُ ما عُلِمَ أن الرسول جاء به. سواءً كان من المسائل التي تسمونها علمية أو عملية فمن جحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعد معرفته بأنه جاء به فهو كافر في دق الدين وجُلِّه» (مختصر الصواعق المرسلة ٢/٤٢١).

وإذا كان الإيمان قولاً وعملاً، فكذا الكفر يكون قولاً وعملاً والقول يشمل قول القلب وقول اللسان.

وعند ابن نجيم رحمه الله تعالى: (الفقيه المصري الحنفي، توفي عام ١٠٠٥هـ) «إن من تكلم بكلمة الكفر هازلاً أو لاعبًا كفر عند الكل، ولا اعتبار باعتقاده» (البحر الرائق ٥/١٣٤).

ويقرر ابن حزم رحمه الله تعالى عدم انحصار الكفر في التكذيب فحسب فيقول:

«قد قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ، فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد – الآيات ٢٥ - ٢٨) فجعلهم مرتدين كفارًا بعد علمهم بالحق وبعد أن تبين لهم الهدى بقولهم للكفار ما قالوا فقط، وأخبرنا تعالى أنه يعرف إسرارهم، ولم يقل تعالى أنهم جحدوا، بل قد صح أن في سرهم التصديق لأن

الهدى قد تبيَّن لهم، ومن تبين له شيء فلا يمكن البتة أن يجحده بقلبه أصلاً» (الفصل ٣/٢٦٢).

ويكون الكفر عملاً ظاهرًا، كالإعراض عن دين الله تعالى مثلاً، فلقد حكم الله تعالى بكفر الممتنع عن طاعته تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران، الآية ٣٢).

يقول ابن كثير الدمشقي الشافعي رحمه الله تعالى (محدث فقيه توفي عام ٧٧٤ هـ):

«دلت الآية على أن مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين» (تفسير ابن كثير ج١/٣٣٨).

وبناء على ما تقدم، يظهر جليًا أنّ أقوال الأئمة الفقهاء اعتبرت التكفير حكمًا شرعيًا، وجعله أهل السنة والجماعة صفة للجاحد بلسانه أو بقلبه أو بهما معًا أو بالعمل، وذلك بعد قيام الحجة عليه. كما تبيّن أن التكفير هو حق الله تعالى، فلا يكفر إلا من كفرَّه الله ورسوله، وهذا هو التكفير المحمود المقبول خلافًا للتكفير المذموم المنهي عنه شرعًا والذي يَرِدُ على غير محله الشرعي.

المطلب الثاني تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن:

يفرِّق أهل السنة بين تكفير المطلق وتكفير المعيَّن، ففي الأول يطلق القول بتكفير صاحبه ـ الذي تلبَّس بالكفر – فيقال: من قال كذا، أو فعل كذا، فهو كافر، ولكن الشخص المعيَّن الذي قاله أو فعله لا يحكم بكفره إطلاقًا حتى تجتمع فيه الشروط، وتنتفي عنه الموانع فعندئذ تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وليس لأحد أن يكفِّر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين، لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة» (مجموع الفتاوى ٤٦٦/١٢).

ثم يقول: إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيَّن، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن، إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفرِّوا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه» (مجموع الفتاوى ٤٨٨/١٢، ٤٨٧).

ومن الأعذار التي ساقها ابن تيمية والتي ترد على المعيَّن: «الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمهما، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله

بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطاياه كائنًا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية هذا الذي عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجماهير أئمة الإسلام» (مجموع الفتاوى ٢٣/٣٢٦).

إلى أن قال: كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرة بينة، لكن ما كان يكفر أعيانهم فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفة أعظم من الذي يدعو فقط.. ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية ويدعون الناس إلى ذلك ويعاقبونهم ويكفرون من لم يجبهم ومع هذا فالإمام أحمد ترحَّم عليهم واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأوَّلوا فأخطأوا، وقلَّدوا من قال لهم ذلك.

وكذلك الشافعي ـ الإمام ـ لما قال لحفص الفرد حين قال: القرآن مخلوق، كفرتَ بالله العظيم، بيَّن له أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردَّة حفص بمجرد ذلك، لأنه لم يتبيَّن له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد، لسعى في قتله» (مجموع الفتاوى ٢٣/٣٤٨، ٣٤٩).

مما سبق، يتبيَّن أن معتقد الكفر أو قائله أو فاعله لا يحكم بكفره على التعيين حتى تجتمع فيه الشروط وتنتفي عنه الموانع،

وأن الواجب ليس المسارعة في تكفيره إنما إقامة الحجة عليه واسقاط الشبهات التي يعتقدها، وأن وصفه الشرعي إلى أن تقام عليه هذه الحجة هو «مخطئ غالط» لا خارج عن الملَّة وعلى هذا جماهير أئمة الإسلام.

المطلب الثالث: عدم تكفير المتأوِّل وعدم التكفير بالمآل:

يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله (المحدث المصري توفي ٨٥٢ هـ) في شأن التأويل السائغ: «قال العلماء كل متأوِّل معذور بتأويله ليس بآثم إذا كان تأويله سائغًا في لسان العرب وكان له وجه في العلم» (فتح الباري ١٢/٣و٤) وعلى هذا ليس كل تأويل يعتبر سائغًا أو عذرًا مقبولاً.

يقول ابن حزم رحمه الله: «وأما من كان من غير أهل الإسلام من نصراني أو يهودي أو مجوسي أو سائر الملل أو الباطنية القائلين بإلهية إنسان من الناس أو بنبوّة أحدٍ من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يُعذرون بتأويلٍ أصلاً بل هم كفار مشركون على كل حال» (الدرة ص ٤١٤/٤٤١).

وقد جاء في الحجة في بيان المحجة للأصفهاني (٢/٥١٠، ٥١١) «أما المتأوِّل إذا أخطأ وكان من أهل عقد الإيمان، نُظر في تأويله فإذا كان قد تعلق بأمر يفضي به إلى خلاف بعض كتاب الله أو سنة يقطع بها العذر أو إجماع، فإنه يكفر ولا يعذر، لأن الشبهة التي يتعلق بها من هذا ضعيفة لا تقوى قوةً يعذر بها، لأن ما شهد

لـه أصـل مـن هـذه الأصـول، فإنـه في غايـة الوضـوح والبيـان، فلمـا كـان صـاحب هـذه المقالـة لا يصـعب عليـه درك الحـق ولا يغمـض عنده بعض موضع الحجة لم يعذر في الذهاب عن الحق، بل عمل خلافه في ذلك على أنه عناد واصرار، ومن تعمَّد خلاف أصل من هذه الأصول، وكان جاهلاً لم يقصد إليه من طريق العناد فإنه لا يكفـر لأنـه لم يقصـد اختيـار الكفـر، ولا رضـي بـه، وقـد بلـغ جهده، فلم يقع له غير ذلك، وقد أعلم الله سبحانه أنه لا يؤاخذ إلا بعد البيان، ولا يعاقب إلا بعد الإنذار فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (سورة التوبة الآية ١١٥) فكل من هداه الله عز وجل ودخل في عقد الإسلام فإنه لا يخرج إلى الكفر إلا بعد البيان. (يراجع المتوسع في العذر بالجهل كتاب العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي لأبي يوسف فراج ١٩٩٣ دار الكتاب والسنة).

ويُبطل ابن حزم الكفر بالمآل، ومعنى التكفير بالمآل كما ذكر ابن رشد الحفيد (القرطبي الفقيه توفي سنة ٥٩٥ هـ) أنهم لا يصـرحون بقـول هـو كفـر، ولكـن يصـرحون بـأقوال يلـزم عنهـا الكفـر وهـم لا يعتقـدون بـذلك اللـزوم» (بدايـة المجتهـد ٤٩٢/٢) (نواقص الإيمان: عبد العزيز بن محمد ص ٨١).

يقـول ابـن حـزم: «وأمـا مـن كفَّـر النـاس بمـا تـؤول إليـه أقـوالهم فخطأ، لأنه كَذِبُ على الخصم وتقويل له مالم يقل به، وإن لزمه فلم يحصل على غير التناقض فقط، والتناقض ليس كفرًا بل قد

أحسن إذ قد فرَّ من الكفر» (الفصل ٣/٢٩٤).

«فصحّ أنه لا يكفر أحد إلا بَنَفْسِ قوله، ونص معتقده، ولا ينفع أحدًا أن يعبر عن معتقده بلفظ يحسِّن به قبحه، لكن المحكوم به هو مقتضى قوله فقط» (المصدر نفسه).

كما نفى الشاطبي الكفر بالمآل (يراجع الاعتصام ٢/١٩٧).

ويتبين مما سلف تمييز العلماء بين حكم المتأوِّل تأويلاً لا يعذر به فهو كافر، بخلاف المتأول تأويلاً سائغًا فمناط العذر من عدمه إفضاء القول أو العمل أو الاعتقاد إلى ما يخالف كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو الإجماع، وأما المتأول تأويلاً سائغًا في الظاهر، فلا يترك لتأويله، لكنه في الوقت نفسه لا يكفَّر حتى تقام عليه الحجة لأنه لم يقصد اختيار الكفر ولا رضي به. كما أن العلماء لا يكفرون باللوازم.

المطلب الرابع: في بيان المراد من الاتفاق على أنه لا يُكَفَّر أحد من أهل القبلة:

جاء في شرح المواقف للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (المتوفى سنة ٧٥٦هـ) (طبعة لدار الكتب العلمية – المجلد الرابع ٧ -٨ ص ٣٦١).

«في الكفر وهو خلاف الايمان فهو عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم مجيئه ضرورة».

ثم ذكر الاتفاق على أنه لا يكفَّر أحدٌ من أهل القبلة: «جمهور

المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة فإن الشيخ أبا الحسن قال في أول كتاب مقالات الإسلاميين: اختلف المسلمون بعد نبيهم عليه السلام في أشياء ضلل بعضهم بعضًا وتبرأ بعضهم من بعض، فصاروا فرقًا متباينين إلا أن الإسلام يجمعهم ويعمهم فهذا مذهبه وعليه أكثر أصحابنا.

وقد نقل عن الشافعي أنه قال: لا أرد شهادة أحد من أهل الأهواء إلا الخطابية فإنهم يعتقدون حِلَّ الكذب. وحكى الحاكم صاحب المختصر في كتب المنتقى عن أبي حنيفة رحمه الله عليه أنه لم يكفر أحدًا من أهل القبلة. (المصدر نفسه ص ٣٧١ وفي أبكار الأفكار في أصول الدين للامام سيف الدين الآمدي (٦٣١هـ). تحقيق د. أحمد محمد المهدي ج٥ – القاهرة ٢٠٠٢ ص ٤٠).

أما كبار الفرق الإسلامية فثمانية: المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة والنجارية والجبرية والمشبهة والفرقة الناجية. فإن قيل فإذا كان حكم أهل البدع والأهواء من الفرق الضالة أنها هالكة من أهل النار في الآخرة فما حكمهم في الدنيا. قلنا: اختلف المسلمون في ذلك، فنقل عن الشيخ أبي الحسن الأشعري وكثير من أصحابه وعن جماعة من أئمة الفقهاء كالشافعي وأبي حنيفة أن مخالفي الحق من أهل القبلة مسلمون حتى نقل عن الشافعي رضي الله عنه انه قال: لا أرد شهادة أحد من أهل الأهواء غير الخطابية فإنهم يعتقدون جواز الشهادة لأوليائهم على أعدائهم زورًا ومن

أصحابنا من قال بتكفيرهم (ص٩٧).

وأما تكفير الروافض والخوارج بتكفيرهم لبعض الصحابة فدعوى محل النزاع قولهم: بأنهم كذّبوا الله ورسوله، إنما يلزم ذلك مع اعتقاد تناول التزكية عن الله ورسوله لمن آمن وليس كذلك.

وما ورد في حق آحاد الصحابة مِمَّن قضوا بتكفيره، فأخبار آحاد لا يكفر مخالفها وبتقدير أن تكون متواترة، فإنما يلزم التكذيب والكفر في حق الروافض والخوارج أن لو لم يكن ذلك بتأويل، وأما إذا كان بتأويل فلا نسلم التكفير لمن كَفَّر بعض الصحابة (ص١٠٢).

كما جاء في مِنَح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر للعلامة المحدث الفقيه علي بن سلطان محمد القاري المتوفى سنة (١٠١٤)هـ / دار البشائر الإسلامية ص ٤٢٧ وما يليها:

«والجمع بين قولهم: لا يُكفَّر أحدٌ من أهل القبلة، وقولهم يكفر من قال بخلق القرآن أو استحالة الرؤية أو سب الشيخين أو لعنهما وأمثال ذلك مشكل كما قال شارح العقائد، وكذا قال شارح المواقف: أن جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة.

ويدفع الإشكال: بتصدي الإمام ابن الهمام في شرح الهداية للجواب عن هذه الحكاية حيث قال: «اعلم أن الحكم بكفر من ذكرنا من أهل الأهواء مع ما ثبت عن أبي حنيفة رحمه الله

والشافعي رحمه الله من عدم تكفير أهل القبلة من المبتدعة كلِّهم، محمله أن ذلك المعتَقد في نفسه كفر فالقائل به قائل بما هو كفر وإن لم يكفر، بناء على كون قوله عن استفراغ وسعه مجتهدًا.

ثم اعلم ان المراد بأهل القبلة الذين اتفقوا على ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد وعلم الله بالكليات والجزئيات وما أشبه ذلك في المسائل.

والمراد بعدم تكفير أحد من أهل القبلة عند أهل السنة أنه لا يكفر ما لم يوجد شيء من أمارات الكفر وعلاماته، ولم يصدر عنه شيء من موجباته» ثم أورد مطلبًا في وجوب معرفة المكفرات لاجتنابها (ص ٤٤٤) ثم قال:

«ثم اعلم أن باب التكفير عظُمت فيه المحنة والفتنة وكثر فيه الافتراق والمخالفة وتشتت فيه الأهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم وتناقضت فيه رسائلهم فالناس في جنس تكفير أهل المقالات الفاسدة والعقائد الكاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله تعالى به رسوله إلى الخلق على طرفين، ووسط من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية. فطائفة تقول لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، فتنفي الكفر نفيًا عامًا، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقون الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وفيهم من يظهر بعد ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين، وأيضًا لا خلاف بين المسلمين أن

الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة فإنه يستتاب فإن تاب فيها وإلا قُتِل كافرًا مرتدًا» (ص٤٤٨) وختم قائلاً: «فمن عيوب أهل البدعة أنه يكفر بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل السنة والجماعة أنهم يخطئون ولا يكفرون» (ص٤٤٩).

المطلب الخامس: أهم المسائل التي دل الكتاب والسنة أنها كفر، والتحذير من التكفير بغير علم ولا دليل شرعي:

١ - من جعل لله ندًا مِنْ خلقه فيما يستحقه الله عز وجل من الإلهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة، ومن الأمثلة على نوعي الشرك ـ في الألوهية والربوبية ـ الغلو في الأنبياء والغلو في الصالحين بأن يجعل فيه نوعًا من الإلهية أو من خصائص الربوبية... ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بالجن والرقى الشركية (٣٣٦/١ مجموع الفتاوى).

٢ - كفر تارك الإسلام بالكلية ومن لم يأتِ بالشهادتين فهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها. والإجماع على أن من جحد وجوب شيء من الأركان الأربعة فهو كافر، وأما ترك شيء من الأركان الأربعة بالكلية مع الإقرار بوجوبها ففيه خلاف، وخاصة في مسألة ترك الصلاة، إلا أن هذا الخلاف بين الأئمة يضيق إذا ما تحرينا المراد من القول بتكفير تارك الصلاة هو تاركها بالكلية لا الذي ترك المحافظة عليها في

أوقاتها (مجموع الفتاوى ٦١٥/٧).

٣ - كفر من ردَّ شرع الله أو بعضه: ويشتمل على ثلاثة أمور:

الأول: كفر من رد ما ثبت بالكتاب والسنة، ويدخل فيه من عارض القرآن الكريم بعقله ورأيه وإن لم يزعم تقديم كلامه على كلام الله ورسوله، بل إذا قال ما يوجب المرية والشك في كلام الله، فكيف بمن يزعم أن ما يقوله بعقله ورأيه مقدم على نصوص الكتاب والسنة (درء تعارض العقل والنقل ٢٠٦/٥)

الثاني: كفر من أنكر الأحكام المتواترة والمجمع عليها إجماعًا قطعيًا (مجموع الفتاوى (٣٨ -٣٩) و (٥٠/١٨ -٥١) .

والثالث: كفر من أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يقوم الدين إلا به كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات وحِل المباحات، غير أن الجاهل معذور والمعاند لله ورسوله كافر، «فإن من جحد شيئًا من الشرائع الظاهرة وكان حديث العهد بالإسلام أو ناشئًا ببلد جهل لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية» (مجموع الفتاوى ٦١/٦).

٤ - كفر من سب الله أو استهزأ به أو بشيء من آياته أو سب أحد أنبيائه أو استهزأ به أو كفره أو قذف أمهات المؤمنين.

٥ - كفر من استحل الحكم بغير ما أنزل الله.

٦ - كفر من استحل المعصية (منهج ابن تيمية للمشعبي ج ٢/ص ٤٩ وما يليها، اقتضاء الصراط المستقيم ٢٣٨ ومجموع الفتاوى ٣٦٨/٢ و ٣٣٧/١٢ -٣٣٨).

٧ - نفي صفات الله وأسمائه، أو تشبيه الله بخلقه أو وصف غير الله بصفة لا تكون إلا لله. (مجموع الفتاوى ٣/١٦٠ -٢١٠ و١١/٤٨٢).

٨ - التشبه بالكفار مطلقًا وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تسويغ اتباع دينهم أو موالاتهم ولاء مطلقًا.

خاتمة:

ويتحصّل مما عرضنا له، أنّ التكفير له ضوابط كثيرة، وله شروط، كما له موانع، فإن تحققت شروطه وانتفت موانعه وأقيمت الحجة على من أتى بلسانه أو قلبه أو عمله بالكفر أصابه حكم الله تعالى في أنه كافر.

ولا تحمل أقوال العلماء الأعلام في شأن عدم لزوم تكفير المعين جرّاء تكفير المطلق، على إعطاء براءة ذمة لكل من تلبس بالكفر، بل إن إقامة الحجة عليه بعينه تخرجه من الملّة إن عاند دون تأويل محتمل.

وإننا على يقين أن عدم تكفير المعيَّن لا يعني نجاته من وصف النبي صلى الله عليه وسلم له بالفسوق أو الابتداع ريثما تقام عليه الحجة.

والله نسأل أن يجعلنا وقافين عند حدوده.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ .

البيان الختامي

للمؤتمر الدولي الرابع العشرين للوحدة الإسلامية

طهران ١٥ – ١٧ ربيع الأول ١٤٣٢

أصدر المؤتمر الدولي الرابع والعشرين للوحدة الإسلامية في ختام أعماله بيانه الختامي الذي شدد فيه على ان الإسلام جامع لأهل القبلة، ودليلُه الشهادتان اللتان تعصمان دم الناطق بهما وماله وعرضه وفيما يلي نص البيان:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد خلقه محمد وآله الطاهرين وصحبه الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فبعون الله تعالى، وبمناسبة أسبوع الوحدة الإسلامية في ذكرى ميلاد الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام الصادق(عليه السلام)، عقد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية مؤتمره الدولي الرابع والعشرين للوحدة الإسلامية بطهران من ١٥ــ١٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ الموافق ١٩ -٢١ فبراير/شباط ٢٠١١م بحضور ٧٥٠ شخصية علمية من الجمهورية الإسلامية الإيرانية وسائر أنحاء العالم. وقد خُصص هذا المؤتمر

لدراسة موضوع (**الأساليب الفكرية والعملية لتحقيق التقريب بين المذاهب الإسلامية**).

افتتح المؤتمر سيادة الدكتور علي لاريجاني رئيس مجلس الشورى الإسلامي بكلمة جامعة ، والتقى المؤتمرون بفخامة الدكتور محمود أحمدي نجاد رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية واستمعوا إلى كلمته القيمة، كما حظي المشاركون بلقاء سماحة الإمام الخامنئي (دام ظله) قائد الثورة الإسلامية وتبادلوا الحديث معه واستمعوا بهذه المناسبة إلى حديثه التوجيهي القيم.

وتدارس المؤتمرون على مدى ثلاثة أيام ومن خلال ثلاثين جلسة عمل ومائة وخمس وعشرين بحثًا وكلمة التي دارت حول موضوعه.

وفي ختام جلساته أصدر المؤتمر التوصيات التالية:

أولاً: يؤكد المؤتمرون انطلاقًا من مسلمات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن الإسلام جامع لأهل القبلة، ودليلُه الشهادتان اللتان تعصمان دم الناطق بهما وماله وعرضه، كما يرون أن التقريب بين المذاهب الإسلامية سبيل مهم لتحقيق وحدة الأمة في شتى المجالات، وأن المذاهب الإسلامية التي تؤمن بأركان الإسلام وأصول الإيمان ، ولا تنكر معلومًا من الدين بالضرورة، يؤلف المنتمون إليها بمجموعهم الأمة الإسلامية الواحدة، وتتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على

من سواهم، ويتعاونون لتحقيق الأهداف الإسلامية السامية، وأن الاختلاف السياسي لايجوز أن يستغل الاختلافات العقدية أو التاريخية أو الفقهية، وأن إثارة أية فتنة طائفية أو عرقية لاتخدم إلا أعداء الأمة، وتحقق خططهم الماكرة ضدها، وتكرس احتلالهم البغيض لأرضها ينبغي مقاومتها بكافة الوسائل.

ثانيًا: يؤكد المؤتمرون على أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وحققا للأمة الاسلامية أجواءً إنسانية حضارية رائعة، وأشاعا العقلانية وروح الحوار البناء، وحرية الاجتهاد بضوابطه الشرعية، وغرسا روح الأخوة والوحدة بعد أن وضّحا خصائص الأمة الاسلامية ورسالتها السامية إلى العالم كله ومن ثم كان تعدد المذاهب حالة طبيعية لها أثرها الإيجابي في تنوع الحلول للمشكلات على ضوء أحكام الشريعة الإسلامية وأصولها.

ثالثًا: يؤكد المؤتمرون أن الأمة الإسلامية تواجه تحديات كبرى تستهدف عقيدتها وشخصيتها وثقافتها ومقومات وجودها ودورها الحضاري المنشود وتتعرض لمؤامرات لتمزيقها جغرافيًا، ولغويًا، وقوميًا، ومذهبيًا، بل وتاريخيًا. كما تسعى لإبقائها متخلفة على الصعد الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والعسكرية وغيرها. وتخطط لإبعادها عن إسلامها والتشكيك في قدرة الإسلام على مواجهة المشاكل الحياتية المستحدثة، وإشاعة السلوكيات المادية المنحرفة عما رسمته الشريعة، وزرع حالة التقليد والتبعية للغرب والانبهار به. وكذلك عبر إضعاف التربية

والتعليم الإسلاميين والتشكيك في قدرتهما على النهوض بالأمة، واختراق الإعلام الإسلامي بإشاعة روح الهزيمة والإذعان والانحلال الخلقي لئلا يقوم بدوره المطلوب في وأد الفتن والتوعية وبناء الشخصية الإسلامية المتوازنة.

رابعًا: يرى المؤتمرون أن: الأهواء والنزعات السياسية، وشيوع حالات التعصب، وجهل بعض أتباع المذاهب بحقيقة المذاهب الأخرى انحرفت بالحالة السوية تلك إلى حالة طائفية ممزقة سادتها ظاهرة الغلو والتكفير والتطرف والتنافر والتمزق ونقل النزاع الفكري إلى الساحة العملية مما ترك آثارًا سلبية خطيرة على قوة الأمة وتماسكها وسهّل السُبل ليقوم أعداؤها بطعنها في صميم عقيدتها وتوجهاتها النظرية والعملية الأصيلة.

خامسًا: تحقيقًا لهذه الوحدة بين أهل القبلة، ولهذا التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية، يدعو المؤتمرون إلى وجوب احترام كل طرف منهم للآخر، وإلى ترك البحث في هذه الأمور الخلافية للعلماء والخبراء في بحوثهم العلمية، وعدم الإساءة والتشهير بأحد. كما يؤكد المؤتمرون على عدم جواز توجيه ما يُعدّ انتقاصًا أو إهانة لما يحترمه أي طرف، ويشمل هذا بوجه خاص عدم جواز انتقاص آل البيت أو أمهات المؤمنين أو الصحابة أو أئمة المسلمين، بالنيل منهم، أو التعرض لأي شيء يُنسب إليهم بأي نوع من أنواع الإساءة القولية أو الفعلية، وعدم جواز استباحة دور العبادة من مساجد و حسينيات وزوايا ومراقد. وفي هذا السياق يثمن

المؤتمرون الفتوى التاريخية التي أصدرها سماحة الإمام الخامنئي قائد الثورة الإسلامية بخصوص تحريم النيل من رموز المذاهب الإسلامية والإساءة لأمهات المؤمنين والتي لاقت الترحيب الواسع من لدن كبار علماء الأمة والأوساط الدينية والأزهر الشريف.

سادسًا: يرى المؤتمرون أن هناك حاجة ماسة لوضع خطط تفصيلية لتحقيق التقريب بين المذاهب الإسلامية في المجالات التالية:

أ ـ رفع مستوى الوعي لدى المسلمين في مختلف المجالات وبخاصة في مجال فهم الإسلام وتعاليمه وأهدافه وفهم الواقع القائم على مختلف الأصعدة.

ب ـ مطالبة الدول الاسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية في كل مجالات الحياة.

ج ـ تفعيل العملية التعليمية والتربوية الشاملة لمختلف قطاعات الأمة وفق تعاليم الإسلام.

د ـ السعي للوصول إلى توحيد موقف الأمة عمليًا من قضاياها الكبرى وتحقيق التكافل والتضامن بينها في مختلف المجالات.

هـ ـ تفعيل مؤسسات العمل الإسلامي المشترك كمنظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمات غير الحكومية الدعوية والخيرية والتربوية والتعليمية والإعلامية.

و ـ الاستفادة الأنجع من الإمكانات السياسية والاقتصادية

والجغرافية، والطاقات العلمية للأمة وتعبئتها لتحقيق الأهداف الكبرى ومقاومة التحديات.

ز ـ مساعدة الأقليات الإسلامية في أنحاء العالم على الاحتفاظ بهويتها وأداء شعائر دينها وتفعيل دورها في المجتمع.

ح ـ العمل الجاد لتطبيق الإعلان العالمي الإسلامي لحقوق الإنسان الصادر من منظمة المؤتمر الإسلامي.

ط ـ تأكيد دور الشعوب الإسلامية في صنع مستقبلها والمشاركة الفاعلة في بناء ذاتها وصيغ حياتها الداخلية و المسيرة الحضارية الإنسانية.

ي ـ تربية الجيل الإسلامي على ثقافة المقاومة والعزة وتشكيل بناء مستقبلي أفضل مع التأكيد على الدور الهام للنساء والشباب.

سابعًا: يدعو المؤتمرون إلى الابتكار والإبداع في مجال الفكر المؤدي إلى التقريب من خلال:

١ – تعميق المنهج الوسطي في فهم الشريعة .

٢ - مراعاة فقه الأولويات، ومعرفة المآلات، ومراعاة الظروف المتغيرة عند اتخاذ المواقف الشرعية.

٣ - مراعاة مقاصد الشريعة، وخصائص الإسلام العامة.

٤ - إحياء علم المقارنات و علم الخلاف.

٥ - الاهتمام بعملية الاجتهاد الصادرة عن المجامع الفقهية.

٦ - الاهتمام بفقه النظريات الذي يختلف عن الاستنباط الجزئي.

٧ - الاهتمام بالتعمق في فكر التقريب في مختلف البحوث والدراسات ولاسيما الفقهية منها.

ثامنًا: وعلى الصعيد العملي يقترح المؤتمرون مايلي:

١ ـ تعميم منطق الحوار بين المسلمين على الأسس الشرعية.

٢ـ توعية النخبة والجماهير بثقافة التقريب، وتعميم روح الألفة والأخوة والمحبة بين قطاعات الأمة.

٣ ـ السعي المشترك المتضافر لاتخاذ المواقف الموحدة في كل القضايا المصيرية من قبيل:

أ - تنفيذ الشريعة الإسلامية

ب - مواجهة التحديات الكبرى

ح - تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة.

٤ - تشجيع إيجاد المؤسسات الوحدوية والتقريبية على كل الصعد الإعلامية والاجتماعية والتربوية في كل مكان .

٥ـ تشجيع الدراسات التقريبية في الجامعات عبر فتح الأقسام الجامعية في هذا التخصص وتشجيع الرسائل وتقوية التبادل التخصصي .

٦ـ ضبط عملية الفتوى وفق الضوابط التي أقرتها المجامع الفقهية.

تاسعًا: يعلن المؤتمرون أن الدعوة إلى التقريب لاتعرف التعصب المذهبي أو محاولة نشر مذهب بين أتباع مذهب آخر وأن كل ما يُقال عن أنّ هذه الدعوة ليست خالصة لوجه الله لاأساس له من

الصحة وهو محاولة للتشكيك في العمل التقريبي ورسالته الاسلامية.

عاشرًا: يدعو المؤتمرون الأخوات المسلمات ممن يتمتعن بالقدرة العلمية إلى المساهمة بأبحاثهن وآرائهن في إنجاح الدعوة إلى التقريب وأن يكون لهن دورٌ واضحٌ في مؤتمرات الوحدة الإسلامية ونشر الوعي التقريبي بين الأسر.

حادي عشر: يدين المؤتمرون كل أشكال الاعتداء الصهيوني على شعبنا الصابر والمثابر والمرابط في فلسطين وخصوصًا ما جرى من جرائم وحشية في غزة البطلة الصامدة من تقتيل وتشريد للآلاف وكذلك ما يجري من هدمٍ لمنازل الفلسطينيين في مدينة القدس، والتغيير الديموغرافي لطبيعتها، كما يحيّون جهاد الشعب الفلسطيني البطل ومقاومته الباسلة ويدعمون جهود المصالحة بين الفصائل الفلسطينية وتوحيدها ويؤكدون من جديد على ضرورة تنفيذ الحقوق الفلسطينية المشروعة وأهمها حقهم في تقرير المصير وإقامة دولتهم المستقلة على كافة الأراضي الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف وحقهم في العودة إلى ديارهم. كما يطالبون المجتمع الدولي بمحاكمة المجرمين الصهاينة ومعاقبتهم على ما اقترفوه من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

ثاني عشر: يعلن المؤتمرون أن المقاومة حق مشروع للشعوب، وهي تختلف اختلافًا جذريًا عن (الحرابة) التي تسمى اليوم بـ

(الإرهاب) المدان إسلاميًا وعالميًا، سواء كان فرديًا أو جماعيًا أو ما قد تمارسه بعض الدول.

ثالث عشر: يعتز المؤتمرون بالانتصارات الرائعة للشعوب الاسلامية على كثير من الصعد ومنها تغيير الحالة الدكتاتورية في تونس ومصر ومواصلة الجهود للحصول على الحقوق المشروعة للشعوب واتخاذ المواقف المشروعة.

رابع عشر: يحيي المؤتمرون جهاد الشعب الإيراني ومسؤوليه في سبيل تطبيق شرع الله في مختلف مناحي الحياة، ويدينون كل تآمر على هذه المسيرة الخيرة، كما يعلنون دعمهم لموقف الجمهورية الإسلامية الإيرانية في تطوير قدراتها النووية للأغراض السلمية ويدينون كل الأساليب الملتوية التي تحاول منعها من الاستفادة من حقوقها المشروعة التي تكفلها لها القوانين الدولية. ويدعون بلدان العالم الإسلامي إلى الاستفادة من هذه التجربة.

خامس عشر: يشكر المؤتمرون الجمهورية الإسلامية الإيرانية وقائدها الإمام الخامنئي(دامظله)، كما يشكرون المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية على إقامة هذا المؤتمر المبارك واستضافته، ويرون في إقامة أمثال هذه اللقاءات خيرًا كثيرًا. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم.

بيان المجمع العالمي للتقريب

حول الأحداث الأخيرة في مصر وتونس

بسم الله الرحمن الرحيم

يا جماهير أمتنا الإسلامية

ويا أيها الغيارى على هذه الأمة بعرضها العريض

إن أمتنا الإسلامية تشهد من جهة هبّة جماهيرية عارمة شاملة بدأت بتونس واستمرت إلى مصر الكنانة وهي تبشر باتساعها الى مناطق أخرى ضد الطغاة والظالمين الذين سلبوها حقها في الحرية والكرامة وحرموها حتى لقمة العيش، ومنعوها من العمل على تطبيق الإسلام على جوانب الحياة، وسلموا بلادهم للاستكبار

العالمي وسياساته الحاقدة، واستسلموا للعدو الصهيوني الغادر.

ولكنها تشهد من جهة اخرى سعيًا غادرًا لاجهاض هذه الهبّة من قبل إعلام دول الغرب وعلى رأسها أميركا بادعاء أنها تقف مع الشعوب الإسلامية وتطالب بحريتها.

ومن هنا فإننا ندعو كل علماء الأمة ـ وفي طليعتهم علماء الأزهر الشريف ـ ومفكريها وجماهيرها أن تدعم هذه الهبّة المباركة كي تحقق أهدافها وتلقي هذه النمور الورقية من أمثال (بن علي) و (مبارك) إلى مزابل التاريخ كمقدمة للقضاء على كل العملاء الذي ينفذون المخططات الاستعمارية في إضغاف أمتنا وقتل حسها الإسلامي.

كما ندعو المؤسسات الإعلامية الإسلامية كي تقوم بدورها المطلوب في عملية الدعم لهذه النهضة، وفضح المخططات الاستكبارية.

ولتعلم جماهير أمتنا المجاهدة أن هؤلاء الطغاة المتنمرين ليسوا إلاّ وحوشًا ورقية سرعان ما تتمزق إذا ثارت بوجهها الشعوب المستضعفة وكشفتها على حقيقتها. (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والعاقبة للمتقين).

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

مقاطع من الخطبة التاريخية للإمام الخامنئي

بمناسبة نهضة الشعبين التونسي والمصري

[حادثة إعجازية]

على ساحة العالم الإسلامي اليوم إرهاصات حادثة عظيمة مصيرية كبرى، حادثة تستطيع أن تغير معادلات الاستكبار في هذه المنطقة لصالح الإسلام ولصالح الشعوب، حادثة تستطيع أن تعيد العزة والكرامة للشعوب العربية والإسلامية وتنفض عن وجهها غبار عشرات السنين مما أنزله الغرب وأميركا بحق هذه الشعوب العريقة الأصيلة من ظلم واستهانة وإذلال.

إن هذه الحادثة الإعجازية بدأت على يد الشعب التونسي وبلغت ذروتها بسواعد الشعب المصري الرشيد العظيم.

* * *

[ستطاول عنان السماء]

لقد انحبست الأنفاس في صدور العالم الغربي والعالم الإسلامي، ولكل واحد أسبابه، وهم يترقبون ما سيحدث في مصر الكبرى، مصر نوابغ القرن الأخير، مصر محمد عبده وسيد جمال، مصر سعد زغلول وأحمد شوقي، مصر عبد الناصر والشيخ حسن البنّا ، مصر عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣.

يترقبون مدى ارتفاع راية همّة المصريين، فلو أن هذه الراية انتكست ـ لاسمح الله ـ فسيعقب ذلك عصر حالك الظلام، وإن

رفرفت على القمم فإنها ستطاول عنان السماء.

* * *

[الحذر من الشَرَك]

الشعب التونسي استطاع أن يطرد الحاكم الخائن المنقاد لأميركا والمجاهر بعدائه للدين، ولكن من الخطأ الظن بأن هذه هي النتيجة المطلوبة.

النظام العميل لا يسقط بخروج المكشوفين من رموزه، لو حلّ محل هذه الرموز بطائنها لم يتغير شيء، بل إنه الشَرَك الذي يُنصب أمام الشعب.

* * *

[ملجأ الفلسطينيين]

إن مصر أول بلد عربي أقام دولة مستقلة بعد الحرب العالمية الثانية ودافع عن مصالحه الوطنية في تأميم قناة السويس، وأول بلد وقف بكل طاقاته إلى جانب فلسطين وعُرف في العالم الإسلامي بأنه ملجأ للفلسطينيين.

* * *

[مصر السيد جمال الدين]

السيد جمال الدين لم يكن مصريًا لكنه لم يَرَ في غير شعب مصر المسلم من يفهم همّه الكبير.

* * *

[اكبر جريمة]

إن أكبر جريمة ارتكبها النظام الحاكم في مصر هي أنه هبط بهذا البلد من مكانته الرفيعة إلى مرتبة آلة طيعة بيد أميركا في لعبتها السياسية على صعيد المنطقة.

* * *

[تضحيات الشعب المصري]

إن الشعب المصري استرخص الغالي والنفيس لمساعدة فلسطين في عام ١٩٦٧ و ١٩٧٣ لكنه رأى بعد ذلك بأم عينيه أن حكامه هرولوا على طريق العمالة والطاعة لأميركا إلى درجة جعلت مصر حليفة وفية للعدو الصهيوني الغاصب!!

* * *

[حركة إسلامية تحريرية]

نهضة الشعب المصري المسلم حركة إسلامية تحررية، وأنا باسم الشعب الإيراني وباسم الحكومة الثورية الإيرانية أحيي الشعب المصري والشعب التونسي سائلا الله سبحانه أن يمن عليكم بالنصر المؤزر الكامل.

إنني اشعر بالفخر والاعتزاز بنهضتكم.

* * *

[واجب علماء الأزهر]

الظرف يتطلب من علماء الدين والأزهر الشريف بتاريخهم النضالي المعروف أن ينهضوا بدورهم بشكل بارز، فحين يبدأ

الشعب ثورته من المساجد ومن صلوات الجمعة ويرفعوا شعار الله أكبر، فإن المتوقع من علماء الدين أن يتخذوا موقفًا أبرز و هو توقّع في محله.

* * *

[لا تثقوا بأمريكا]

إن أميركا التي دعمت الحكام العملاء ٣٠ عامًا، خلافًا لإرادة الشعب المصري ليست الآن في موقف يؤهّلها أن تدخل في قضية مصر في وساطة أو نصيحة. انظروا بعين الشك والتشاؤم في هذا الشأن إلى كل توصية وخطوة أميركية ولا تثقوا بها.

* * *

[ثلاثون سنة من الأكاذيب]

يا أبناء الكنانة!

إن الأبواق الإعلانية للعدو سوف ترفع عقيرتها كما فعلت من قبل بالقول: إن إيران تريد أن تتدخل! تريد أن تنشر التشيع في مصر!! تريد أن تصدر ولاية الفقيه إلى مصر!! وتريد وتريد، ... هذه أكاذيب ملأت آذاننا خلال ٣٠ عامًا، الهدف منها أن يفرقوا بين الشعوب ويحولوا دون تعاضدها. ويرددها أيضًا المأجورون: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

إن هذه الأحابيل لا تثنينا إطلاقًا عن أداء ما حمّلنا الإسلام من مسؤولية. والله من وراء القصد.